روافد

عينـــان مطفأتـان
وقلـــب بصيـــر



رواية

دكتور عبدالله الطنطاوي

إسهام

١

روافد

عينان مطفأتان، وقلب بصير

دكتور عبدالله الطنطاوي

عبدالله الطنطاوي

القاص والروائى عبدالله الطنطاوي من مواليد بلدة إعزاز التابعة لمحافظة حلب سنة ١٩٥٣م، حاصل على دبلوم الدراسات العليا من الجامعة اليسوعية في بيروت، ودكتوراة فخرية من مؤسسة الاثنينية في جدة، معد ومقدم لبرامج إذاعية وتلفزيونية كثيرة، ورئيس رابطة أدباء الشام. ورئيس تحرير الموقع الإلكتروني (أدباء الشام). له ثلاثة مسلسلات تلفزيونية، كل مسلسل في ثلاثين حلقة قُدمت في عدد من التلفزيونات العربية. ونُشر له أربعة وسبعون كتاباً في القصة والرواية والنقد الأدبي والتراجم والتحقيق.

روافد

نهر متعدد.. متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة، رمز بريدي: 13001 دولة الكويت
الهاتف: 2487106 (965+) - فاكس: 2468134 (965+)
البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

الطبعة الأولى - دولة الكويت

أبريل **2007** م / ربيع الأول **1428**هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع : **2006/540**
ردمك : **99906-90-71-5**

فهرس المحتويات

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا تأكد أن خير ما يتقوم به الشيء هو هويته ووظيفته، فإن الأدب يتخذ، هنا، قيمة كبرى، ويحتل أعلى درجات الأهمية والجدوى، ذلك أنه، من حيث الهوية، يرتد إلى معنى الأخلاق والآداب، ومن عجيب الموافقات أن العلاقة بين الأدب والآداب ظلت وطيدة حتى في لحظات الضعف الحضاري والركون إلى قيم فاقدة لدورها في تهذيب القيم وتوجيه النفس الإنسانية في تفردها أو في علاقتها بمحيطها الاجتماعي والسلوكي. ومن يقرأ تاريخ الأدب العربي، قديمه وحديثه، يدرك هذه الصلة الحميمية بين الأدب والآداب والقيم، إلى درجة أنه يمكن الانتهاء إلى خلاصة جوهرية وهي أن الأدب لم يخرج، في يوم من الأيام، عن التبشير بقيمة أو التنفير من قيمة.

وهذا ينقلنا إلى المقوم الثاني من مقومات الأدب، ونقصد به وظيفته، فمنذ مقولة «هوراس»: «الشعر ممتع ومفيد»، وإلى أحدث الاتجاهات الأدبية، فإن الأدب له وظيفة، حتى ولو كانت وظيفته في أن يخرج عن وظائفه الأصيلة أو «التقليدية»، بتعبير بعضهم، أو يتحداها، فالوظيفية قدر الأدب ومحدده الواقعي وضامن وجوده وبقائه واستمراريته.

والرسول عليه السلام، عندما قال: «إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكما»، وعندما أعلن المبدأ النقدي العام: «إنما الشعر كلام مؤلف، فحسنه حسن وقبيحه قبيح»، إنما كان، عليه السلام، يؤكد حقيقة أن الأدب له رسالة ووظيفة.

فمن وظائف الأدب، والفن بدرجة موازية، أنه يسهم في تشكيل رؤية الإنسان إلى الوجود والكون والحياة بمختلف مفرداتها وعلاقاتها، وقبل أن يقرأ الناس كتب الفلاسفة والمفكرين، فإنهم تلقوا القيم الوجودية المبثوثة في ثنايا القصائد والأعمال الروائية والمسرحية والإنتاجات الفنية.

كما أن الأدب والفنون عامة، لغوية وغير لغوية، تسهم في تهذيب النفس، والارتفاع بذوقها وإحساسها بالجمال، وهي مخزن الأخلاق الفاضلة وداعيتها الأصدق، وهي التي تتغنى بفضائل الأخلاق وتسجل مآثر القيم، وتصوغ من بيانها حكما خالدة تحتفي بالصدق والوفاء والكرم وحزم الرأي والحب والخير والجمال، وتنفر من نقيضها.

وقد اعتور الأدب والفنون، في العصر الحديث، نوازل وأزمات، وخضعت، في بعض جوانبها، لتأثيرات المذاهب التي تدعو إلى التحرر من القيم والآداب، وجعل الأدب ميدانا لسيطرة النزوع نحو إفراغ الإبداع من محتواه القيمي، وتم استدعاء مقولات إلى ساحة النقد الأدبي، من مثل مقولة الإعلاء من الوظيفة الأسلوبية على حساب الوظيفة التهذيبية، وتم محاصرة الداعين إلى قيمية الأدب والفن في زاوية الدعوات الماضية التي لم تعد صالحة لـ «حداثة» اليوم، وكأن هناك تنافيا وتنابذا قدريين بين «الحداثة» و«القيم»، في حين أن الأدب والفنون، كما أشير إليه سابقا، لا تتقوم إلا بهويتها ووظيفيتها اللتين مضى معنا بيان أمرهما.

وإيمانا من قطاع الشؤون الثقافية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت بأهمية الأدب والفنون ودورهما في نشر القيم الفاضلة والدعوة إلى الذوق الرفيع والجمال المنتج، فإنه جعل من آكد أدواره الإسهام في تجديد النظر إلى هذا الميدان، ووضع إطار يجتمع فيه أصحاب الريادة الأدبية والمواهب البيانية والفنية، يقدمون للأمة خير ما تخطه أقلامهم في ميادين الشعر والقصة والرواية والمسرحية والدراسة الأدبية والفنون.

وقد تبلور ذلك الإيمان في إنجاز إصدار أدبي وفني دوري ضمن مشروع روافد، يحمل إسم «**إسهام**»، وذلك لإثراء الساحة الأدبية والفنية، وجعله منتدى لتوظيف مختلف الآداب والفنون في إشعاع القيم البناءة وتنمية الذوق والوجدان بأسلوب أدبي وفق الرؤية

الوسطية، ولتأكيد أن الدين الحنيف لم يعارض الكلمة الموحية المشعة والأشواق الجميلة المعبرة، ولم يقيد الإبداع الأدبي والفني الراقي، وإنما وضع الأسس والمعايير، وأفسح المجال للأدباء والفنانين للتعبير عن أشواقهم وطموحاتهم النفسية والاجتماعية. وذلك كله من أجل أن يكون الأدب والفن شعبة من شعب الإيمان، إذ لما كان الحياء شعبة من شعب الإيمان، ولما كان إماطة الأذى شعبة من شعب الإيمان، فكيف لا يكون الأدب شعبة من شعب الإيمان، وهما دعوة إلى قيم متساوقة مع قيم الحياء، وهما دعوة إلى إماطة أذى التصورات والمفاهيم والقيم السلبية من طريق الإنسان في رحلته إلى الله.

ويتوخى الإصدار الأدبي والفني «**إسهام**» العمل على تحقيق الأهداف الآتية:

- إبراز دور الأدب (الشعر والقصة والرواية والمسرح والدراسة الأدبية) والفنون (خط، زخرفة، عمارة...) في التحصين الثقافي في زمن يتميز بالانفتاح والتحولات القيمية.

- إبراز دور الأدب والفنون في تنمية الذوق وتطوير مهارات الإدراك الجمالي لدى القراء والمهتمين.

- استثمار هذا الميدان الحساس لتمكين القيم الإسلامية من نفوس المهتمين والناشئة وعموم القراء والمتذوقين للأدب.

- الاستجابة لمنظور الإسلام الذي يغطي مختلف مناحي الحياة الإنسانية، ومنها جانب الذوق والوجدان والشعور، تلك الجوانب التي تعد، بحق، المحاضن الراعية للقيم والرؤى والأفكار.

- الاستجابة للتنوع الذوقي عند المتلقين، إذ يوجد من المتلقين من لا يتفاعل مع الأطروحات الفكرية المتطلبة لطاقة كبيرة من التركيز وإجالة النظر، ويجد نفسه مستجيبا للتفاعل مع الكتاب الأدبي، شعرا أو قصة أو مسرحية أو رواية، والعمل الفني.

- اكتشاف المواهب الأدبية والفنية في المجتمع الكويتي ابتداء، والمجتمع العربي الإسلامي انتهاء، ثم رعايتها وتأهيلها لاستيعاب القضايا الإسلامية الفاعلة في الساحة، ومعالجتها وفق منظور الوسطية والحوار الحضاري.

- الإسهام في تنشيط الخطاب الإسلامي حول الأدب والفنون.

- تشجيع الأدباء والفنانين على تجسيد مقتضيات مسؤوليتهم في التوجيه والتحصين والترشيد.

- توفير تراكم أدبي وفني يمثل دليلا عمليا على قوة المرتكزات الفكرية والفنية للإسهام في ميدان الأدب والفنون.

إن السعي إلى نشر قيم الوسطية والتسامح والحوار الحضاري يعتمد أساليب ووسائل، ولا شك أن ميدان الأدب والفنون يعد أرحب الوسائل وأضمن الأساليب، لأنها، بطبيعتها، تخاطب وجدان المتلقي وتستثير فيه مكامن الاستجابة، وتستحث فيه قوة ذاتية للتأمل والنظر والمقارنة والاختيار، وتلك قيم يسهم الأدب والفنون في تنميتها إسهاما فعالا.

والأمل معقود على أدباء الأمة وفنانيها لأن يسهموا بإنتاجهم الأدبي والفني، وذلك من أجل إبراز دور الأدب والفنون في رعاية قيم الأمة ونقل طموحاتها ورؤيتها إلى العالم، تلك الرؤية القائمة على الفهم والتفاهم، والرغبة في التواصل وإشعاع قيم الحب والخير والجمال.

تقـــديم

تقدم الرواية «عينان مطفأتان وقلب بصير» تجربة شاب لم تمنعه إصابته بالعمى من أن يحقق أمنيته ويؤدي رسالته على الوجه الأمثل، نموذجاً يعكس تجربة أحد الذين انتصرت إرادتهم القوية على الإعاقة، فتحول إلى نموذج يقتدى به في المحافل والمجالس ويسعى الناس إلى استشارته والأخذ برأيه، من العامة والخاصة، ومن الأسرة والمحيط القريب والبعيد على حد سواء.

ويختار الكاتب والروائي عبدالله الطنطاوي لبطل روايته، الشاب أعمى العينين بصير القلب ثاقب النظر، حاد البصيرة، اسم «صالح»، ويسعى، على طول الرواية، إلى أن يترجم معاني هذا الصلاح من خلال كثير من المحطات، سواء فيما تعلق بعلاقته بأمه وأبيه والمحيط القروي القريب منه أو بالمحيط العلمي الذي انتسب إليه، أو بالمحيط السياسي الذي حصل منه على الدعم النفسي والمادي لإتمام مسيرته العلمية والاجتماعية.

وتشير أحداث الرواية إلى أن الذكاء الذي تميز به البطل ورجاحة العقل وحسن البصيرة جعلته يتبوأ مكانة عالية بين أهله ومحيطه، أو لم يقل الشافعي:

تعلم فليس المرء يولد عالماً — وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لاعلم عنده — صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالماً — كبير إذا ردت إليه المحافل

هكذا كان حال البطل الشيخ صالح، الذي استطاع الروائي من خلال الوقوف عند أحداث ومواقف أن يقدم رؤيته لعدد من القضايا الاجتماعية كالإعاقة مثلاً التي لم تكن حائلاً دون الوصول إلى الهدف المنشود بفضل الإرادة القوية والعزيمة الصلبة اللتين تسلح بهما الشاب صالح لمواجهة الحياة بقوة، ولتحقيق الاندماج الإيجابي

في المجتمع انطلاقاً من مراحل دراسته الأولى مزوداً بفلسفة رفض اليأس والفشل والتشاؤم، وانتهاءً بالزواج الذي جعله منطلقاً نحو آفاق أخرى جديدة وبنفس جديد نحو تحقيق الهدف وإثبات الذات، مروراً بمخالطة الناس والنصح لهم ومد يد العون لهم، والإحسان إلى الوالدين، وغير ذلك من مظاهر شبكة العلاقات الاجتماعية.

هما رسالتان اثنتان يسعى رئيس رابطة أدباء الشام، الروائي عبدالله الطنطاوي إلى إبلاغهما إلى القراء من خلال روايته «عينان مطفأتان وقلب بصير»، تتعلق الأولى بشرط توافر الإرادة عند كل من يرغب في التطوير والتقدم نحو الأفضل، وهذا ما يعكسه كلام الشيخ صالح حين قال: «أنا لست عاجزاً يا أبي، العمى ابتلاء من الله، ولن أكون عاجزاً بسببه»، فهي جملة تعكس الإرادة القوية لهذا الشيخ الشاب، الذي آمن بالقدر وآمن بالفرار من قدر إلى قدر آخر، فقرر مواصلة درب التحصيل العلمي حتى أدرك ما أدرك، رافضاً أن يُنظر إليه نظرة استعطاف وشفقة، فهب يقوم بما عجز عن القيام به كثير من المبصرين من أقرانه وممن هم أكبر منه. وأما الرسالة الثانية فهي واجب الأمة ومسؤوليتها في الاعتناء بالطاقات والمواهب والسهر على توجيهها وإزاحة ما يعترضها من مشاكل تحد من عطائها، وهو الدور الذي تولاه الشيخ فاتح، أحد أصدقاء أبي صالح الأغنياء، الذي فتح الله على يديه للشاب صالح طريق دراسة العلم الشرعي، ليكمل الوزير هذا المشوار ويعتني بهذا الشيخ الضرير عناية جعلته محط أنظار أهل القرية والمجتمع.

وتقدم الرواية بطلها الشيخ صالح نموذجاً للشاب الفعال المخلص الغيور على وطنه وقريته، الذي يحب الخير للناس ويسعى لإسعادهم، نموذجاً لصاحب رسالة حضارية تعليمية يؤديها نظير ما حصل من علم، وما قدمت له من مساعدات لتحقيق ذلك، نموذج من آمن بسلاح العلم والكلمة فطفق يعلم أهل قريته ساعياً إلى الانتقال بهم من عالم الجهل والأمية إلى نور العلم والمعرفة، نموذج من يسخر

كل الإمكانيات المتاحة إليه في تحقيق هدف أسمى، فقد سخر هذا الشاب الرجل الغني الحاج فاتح من خلال خدماته، وإنفاقه المادي، وسخر الوزير، ذا النفس الطيبة الخيرة، كرمز للسلطة، وسخر والده صالح، كرمز للرجل الفقير المكافح الذي لايحب أن تفوته مشاركة في عمل خيري، فهو بهذا نموذج من يحسن فن التعامل مع المحيط ويسخره لتحقيق خير الأمة.

ومن الناحية الشكلية يمكن القول إن الرواية «عينان مطفأتان وقلب بصير» انبنت في أحداثها وفق خط تصاعدي في الزمن، فأحداث الرواية تبتدئ منذ أن كان البطل يافعاً إلى أن هاجر طلباً للعلم، إلى حين الزواج، إلى أن قارب على مناقشة الماجستير، وقد عمدت الرواية إلى نقل هذه الأحداث متوالية في الزمن، بعيداً عن تقنية الاسترجاع والتذكر إلا في ما ندر، كتقنية ترجع بالقارئ إلى أحداث من الماضي، أو تقنية التضمين، بمعنى تضمين مشهد من الرواية مضامين وأحداث أخرى، وهذا الخيار أتاح للقارئ فرصة أن ينشد إلى الرواية في تسلسل أحداثها ومواقفها الإنسانية وحسن التصوير كل ذلك يجعل القارئ لايترك الرواية إلا بعد أن يتم قراءتها ويحصل له التعاطف المطلق مع البطل متمنياً تعميم هذه التجربة لتكون مثالاً يحتذى.

وقد ازدادت الرواية جمالية وإحكاماً بفضل الحبكة الفنية في التصوير والدقة في نقل التفاصيل والجزئيات، والبناء التسلسلي للأحداث، والبساطة في التراكيب والعبارات. هذا فضلاً عن حرص واضح على تعميق معنى كثير من الأخلاق السامية في نفوس القراء من قبيل البذل في سبيل العلم، وخدمة أهله، وبناء المدارس، والتعاون مع الغير في المعروف، والإيثار، والتضحية.

وتتقدم الرواية بشكل عام بمشروع ذي شعبتين:

شعبة استثمار الإعاقة وجعلها عنصر تحفيز وفعالية نحو العطاء،

وهو ما تم من خلال تقديم نموذج الشيخ صالح، أعمى العينين بصير القلب.

شعبة تفسير مفهومٍ الإعاقة، بمعنى أن الإعاقة ليست نتيجة مرض عضوي يصيب عضواً من أعضاء الجسد، وإنما الإعاقة في الركون إلى الكسل والخمول واليأس.

والقارئ الكريم مدعو إلى ولوج فضاء الرواية والاستمتاع بعالمها الفني والقيمي.

الفصل الأول

توقّفت السيارة بالقرب من فتى يافع لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ومدَّ الحاج فاتح رأسه من نافذة السيارة، ونادى:

- يا ولد .. يا ولد .. أنت يا ولد.

توقّف الفتى عن تلاوة القرآن، وسأل:

- هل تناديني؟

أجاب الحاج فاتح:

- وهل هناك غيرك في هذه القرية حتى أناديه

نهض الفتى من جلسته في ظلّ الجدار، وتقدّم نحو صاحب الصوت، ثم قال:

- اسمي صالح، ويدعوني أهل القرية بالشيخ صالح.

نظر الحاج فاتح نحو ابنه فؤاد الذي كان يجلس بجانبه، ثم نظر إلى الفتى، وظهر له أنه ضرير، ولكنه فيما يبدو ذكي وفصيح.. ثم قال له:

- السلام عليك يا ولدي يا شيخ صالح، هل تركب معنا، لتدلّنا على منزل المزرعاوي؟

سأل الشيخ صالح:

- من أنت أولاً يا عمي؟

أجاب الحاج فاتح:

- أنا فاتح، اسمي فاتح، ويدعونني بالحاج فاتح.

- والذي معك؟

- معي ولدي فؤاد، وهو في مثل سنّك.

ثم التفت إلى ابنه وقال له:

- سلّمْ على الشيخ صالح يا فؤاد.

مـدّ فؤاد يده مصافحاً، فأخذ الشيخ صالح كفّه الناعمة بين كفّيه الخشنتين، وقال له:

- أهلاً بك وبأبيك يا فؤاد.. أنتم بين أهلكم.

صعـد الشيخ صالح إلى السيارة، واستأذن فـؤاد أباه في الجلوس إلى جانب الشيخ صالح، في المقعد الخلفي، فأذن له.

قال الشيخ صالح:

- امش يا عمي على بركة الله.

- إلى أين؟

- إلى بيت المزرعاوي.

سأل الحاج فاتح:

- من أين أسير؟

فدلّه الشيخ صالح.

- تمشـي مئتي خطوة إلى الأمـام، ثم تنعطف إلى اليمين، أو تقف في الساحة التي على اليسار لأنّ بيت والدي المزرعاوي لا يبعد أكثر من عشرين خطوة من الدخلة الضيّقة.

سأله الحاج فاتح باهتمام:

- هل أنت ابن أبي صالح المزرعاوي؟

فضحك الشيخ صالح وهو يقول:

- أنا صالح، وهو أبو صالح، فمن أكون إذن، إذا لم أكن ابن أبي صالح؟

ضحك فؤاد وضحك معه أبوه، شاركهم الشيخ صالح في الضحك، فيما كان الحاج فاتح يصفّ سيارته الفخمة في الساحة التي أشار إليها الفتى صالح.

ترجّل الثلاثة من السيارة، وسار الشيخ صالح بين الوالد وولده، رافع الرأس، بارز الصدر، ثابت الخطو، كأنه بصير يرى طريقه، ويتحاشى الحفر والنتوءات الصخرية، ويحذّر صاحبيه منها:

- انتبه ياعمي الحاج... انتبه ياصديقي فؤاد.. قريتنا - كما تريان - مهملة، والدروب فيها مُتّرَبة، وصخرية، تعلّم راكبي السيارات الرقص.

فقال فؤاد وهو يبتسم:

هل علمتك الرقص يا شيخ صالح؟

ابتسم صالح وهو يقول:

- لو كان عندنا سيارة لعلّمتني... ولكنّي عرفت هذا عندما ركبت سيارتكم، وهي المرة الأولى في حياتي التي أركب فيها سيارة.

- في حياتك؟

- نعم .. لم أركب سيارة قطّ، ولم أخرج من قريتي إلا إلى الحقل لأساعد أبي في الحراثة والبذار والحصاد، وأساعد أمي في جمع

الحطـب، وحمله، وتنقية التربـة من الحجارة والأشـواك والأعشاب الضارة بالمزروعات.

قال فؤاد في دهشة:

- أنت تقوم بكل هذه الأعمال؟

- فأجابه أبوه:

- لـو لم يقم بتلك الأعمال، وبغيرها ما دعوه الشيخ صالح، ثمّ إنه مزرعاوي.

قال صالح:

- وصلنا... هذا هو البيت.

تقدّم صالح وقرع الباب، ثم فتحه وهو يصيح:

- يا الله.. يا أمّ صالح جاءنا ضيوف كرام.. أعطينا الطريق.

ثم التفت إلى الضيفين، وقال وهو يدلّهما على البيت:

- تفضّل يا عمي.. تفضل يا سيّد فؤاد.

- دخـل الضيفـان خلـف صالـح، وخرج أبـو صالح مرحّبـاً بهما، ومعانقاً، فسأله ابنه صالح في مكر:

- هل تعرف الحاج فاتح يا أبي؟

- فصاح الأب:

- كيـف لا أعرفه يا ولدي وهـو وليّ نعمتي التي تعيشون فيها بعد الله؟ ثم كيف لم تعرف أنت الحاجَّ فاتحاً يا صالح؟

- ثم أقبل من جديد على الضيوف مرحّباً:

- أهلاً بك يا حاج فاتح.. أهلاً بك يا أيها الفتى النبيل.

فقال صالح:

- فؤاد .. هذا صديقي فؤاد، ابن الحاج فاتح يا أبي.

فتابع الأب:

- أهــلاً بك يا ولدي يا فؤاد .. لكــنْ.. أين الحاجة أم عدنان؟ وأين السيد عدنان، والسيد كامل، والآنسة غالية؟

وقال صالح:

- نسيت السيد أنس يا أبي.

فقال فؤاد:

- إذن أنت تعرف أسماءنا كلّها يا شيخ صالح؟

قــال صالــح، وإكليل مــن البسمات العــذاب يرتسم علــى شفتيه السمراوين اليابستين:

- لقد عرفتكم من اللحظة الأولى التي نطقت بها اسمك يا عمي، ولذلك لم أسألك عمّا تريده من بيت المزرعاوي.

- ولكنك لم تُظْهِرْ لنا أنك تعرفنا.

قال صالح:

- الاحتياط مطلوب يا عمّي..

وقال أبو صالح:

- صالح هكذا يا حاج..

فقاطعه الحاج فاتح:

- اسمه الشيخ صالح يا أبا صالح.. أليس كذلك يا شيخ صالح؟

- بلى يا عمي.. أنا أحبّ أن ينادوني بالشيخ صالح.. كل أهل القرية ينادونني بالشيخ صالح، وكذلك يفعل أبي، أمّا أمي وإخوتي فلا ينادونني بالشيخ صالح..

ثم أخذ يقلّدهم:

- صالح.. يا صالح... أين أنت يا صالح.

وضحك صالح، وضحك معه أبوه وفؤاد، أمّا الحاج فاتح، فقد استغرق في الضحك، فانتابته نوبة سعال كادت تقضي عليه، لولا أنّ الله سلّم، فقد أسرع أبو صالح، وجاء بإبريق ماء، وكأس، فتناول الحاج فاتح منه بضع قطرات، ومسح وجهه بباطن كفّه المبلل بالماء، فسكت عنه السعال وهدأ، ولكنّ عينيه العسليتين الواسعتين ما تزالان تسحّان الدموع...

لاحظ أبو صالح أن ولده يريد أن يلقي نكتة جديدة، فصاح به:

- اترك الحاج يستريح يا صالح.. كاد يموت من مزاحك يا صالح.

ثم التفت إلى الحاج فاتح وقال:

صالح يخفف دمه مع من يعرف، ومع من لا يعرف، بشرط أن يأنس به، ويطمئن إليه.

ابتعد صالح قليلاً عن الحاج فاتح، ولاحظ أبوه ارتجاف بدن الحاج، فالتفت إلى صالح، وسأله:

- ماذا فعلتَ يا شيخ صالح؟

قال صاح:

- لا شيء .. كنت أقلّد أمّي: صالح..

فصرخت به أمّه من صحن الدار:

- كفّ عن هذا صالح.. ما صدّقنا أنّ الحاج استراح.

فقال الحاج فاتح:

- باللّٰه عليك يا أمّ صالح.. لاتناديه بعد الآن إلا بالشيخ صالح.

قالت في أدب وقد اقتربت من باب الغرفة:

- أمرك يا حاج.. أمرك..

ثم نادت:

- يا صالح..

فانفجر الجميع بالضحك، وعادت أمُّ صالح أدراجها وهي تقول:

- هذا الولد سوف يجنني.. يريد أن يكون شيخاً، ويريد أن نعترف بمشيخته.. هذا يجوز، وهذا لا يجوز.. أعوذ باللّٰه.

ناداها زوجها:

- نريد قهوة يا أم صالح.

ردّت عليه من بعيد:

قل للشيخ صالح يعمل القهوة.. أنت لا تحبّها إلا من يده.

فنهض صالح وهو يقول:

- أمرك يا أمي... أحلى قهوة سوف تشربونها من يد الشيخ صالح.

خرج صالح من الغرفة، واتجه نحو المطبخ، وهو يسترضي أمه، بينما كان الحاج فاتح مندهشاً من حركة صالح، وكأنه بصير.

لاحظ أبو صالح هذا التساؤل في عيني ضيفه، فقال له:

- عند هذا الولد أعجوبة.. لا ينقصه إلا النظر.. ذكيّ جداً.. تصوّر يا حاج أنه حفظ القرآن الكريم قبل سنتين.. كان في العاشرة عندما تنافس مع إمام المسجد على حفظ القرآن، تحدّى الإمام الذي يعلمه القرآن واللغة العربية، ثم جلسا يحفظان، واعترف الإمام بأن حفظ صالح أقوى من حفظه هو...

سأل الحاج في انبهار:

- حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين؟

- نعمْ .. وترتيله جميل؛ وتجويده - كما يقول الإمام - سليم جداً.

سأله الحاج:

- وكيف دراسته؟

أجاب أبو صالح:

- نال الشهادة الابتدائية في العام الماضي، كان يذهب إلى القرية المجاورة.. عشرة كيلو مترات يمشيها كل يوم ذهاباً وإياباً من أجل المدرسة.

- ولماذا لم تسجّله في الإعدادية؟

- البلدة التي فيها إعدادية بعيدة جداً.. أكثر من ثلاثين كيلو تبعد عن قريتنا، ولا يوجد لنا قريب هناك حتى يسكن عنده.

ثم نظر إلى الحاج فاتح نظرة ذات معنى، فيما كانت أمّ صالح تقف خلف الباب وتقول:

- والله يا حاج فاتح، لو أننا نستطيع أن نعلّمه لما قصرّنا، ولكنّ العين بصيرة، واليد قصيرة .. يا حسرة على ذكائه.

وقال أبو صالح:

- وهو ضرير، ويحتاج إلى من يخدمه.

فجاء صوت صالح:

- أعطيني الطريق يا أمي..

ودخل يحمل صينية القهوة، ويتقدم بها نحو الحاج فاتح، وهو يقول:

- هل سمعت كلام أمّ صالح يا عمّي؟ قالت: يحتاج إلى من يخدمه، وهأنذا أخدمهم وأخدمكم.

ضحك الجميع إلا الحاج فاتحاً، فقد تناول فنجان القهوة في صمت، وكأنه ذاهل عمّا يتحدّث به صالح وأمّه وأبوه.

قال أبو صالح:

- ويحك يا شيخ صالح.. كأننا ليس لنا حديث غيرك.. أفلا تأخذ فؤادًا لتريه القرية؟

- قال صالح ضاحكاً:

- الحمـد لله الذي أعمانـي حتى لا أرى هذه القريـة.. ماذا فيها حتـى يراها؟ هـل أريه أزقّتها الضيّقة، أم بيوتهـا الطينية، أم دوابّها؟ أم ماذا؟

قال أبوه:

- ويحك يا ولدي، لقد أخجلتني بكلامك هذا.

قال صالح:

- لا تخجل من هذا يا أبي، فليس الذنب ذنبك..

قال أبو صالح مَؤمِّناً على كلام ابنه:

- كلامك صحيح ياولدي، فأنا عاجز مثلك.

فانتفض صالح قائلاً ومقاطعاً:

- أنا لست عاجزاً يا أبي... العمى ابتلاء من الله، ولن أكون عاجزاً بسببـه.. أنا أذكى من زملائـي المبصرين.. كنت الأول في المدرسة، وحفظت القرآن الكريم قبل الإمام، وأنظم الشعر، وزملائى وأقربائى، وأبناء قريتي والقرى المجاورة كلها ليسوا خيراً مني، بل ليسوا مثلي، وأنـت تعرف هذا يا أبـي، وكلّ أهل القرية يعرفـون، ولذلك أسموني الشيخ صالح.

قال الأب في انكسار:

- الحمد لله الذي وهبك هذه المشاعر يا ولدي.

وبعد قليل، قال:

- اذهـب بصديقك السيد فؤاد إلى الكرم، وكلا من التين والعنب، واقطفا لنا أيضاً.

قال صالح:

- أمّا هذه فنعمْ.. هيّا يا فؤاد.. هيّا ياصديقي، استأذن أباك..

قال فؤاد:

- هل تسمح لي يا أبي؟

فهزّ الحاج رأسه موافقاً، وسحابة من الاهتمام والتفكير بادية على محيّاه.

بعد أن خرج الفتيان، همَّ أبو صالح بالكلام، فقال له الحاج فاتح:

- ما رأيك يا أبا صالح في تعليم ابنك في المعهد الشرعي في المدينة؟ إنها مدرسة داخلية، يأكل فيها الطلاب وينامون، ويتعلمون، وهناك علماء أفاضل يعلّمونهم أمور دينهم، ويحصلون في نهاية المرحلة على الشهادة الثانوية التي تؤهلهم للانتساب إلى كلية الشريعة في الجامعة.

زفر أبو صالح شواظاً من نار ثم قال:

- يا ليت ... يا ليت... يا حاج.

قال الحاج فاتح:

- أعطني أوراقه، وسوف أسجّله بإذن الله، وسيكون بمثابة ولدي فؤاد الذي سجّلته فيه.

- ولكنه أعمى يا حاج فاتح.

- وليكن .. انظر إلى الأزهر الشريف .. كثير من طلابه ومشايخه من العميان... العمى ليس عاراً ولا عيباً، ولن يكون عقبة في طريق

الأذكيـاء والمجدّيـن.. أم تريدنـي أن أضـرب لك الأمثـال بعشرات الشعـراء، والكتّاب، والأدباء، والمفكريـن، والعلماء، والمتفوّقين ممّن ابتلاهم الله بعاهة العمى؟

قال أبو صالح:

- أنت تعلم حالي يا حاج فاتح.

فقاطعه الحاج فاتح:

- قلت لك: إنه سيكون مثل ولدي فؤاد.. اسمح لي أن أوضح لك... سـوف أقدّم له مثل ما أقـدم لولدي من المصروف، واللباس، وكلّ ما يلزم.

قال أبو صالح:

- ولكنّ هذا كثير يا حاج..

قال الحاج..

- ليـس كثيراً... الخير موجود ولله الحمد، ثم ... ألسنا أصحاباً؟ أليس بيننا خبز وملح كما يقولون؟.

ثم... لا إله إلا الله.. ناد أمَّ صالح.

فنادى أبو صالح زوجته:

- يا أم صالح.. تعالي... يا أم صالح..

جاءت أم صالح مسرعة ووقفت خلف الباب، وقالت:

- خيـراً إنٍ شاء الله؟ الطبخة قاربت علـى النضج.. ساعة ويكون الطعام جاهزاً يا أبا صالح.

قال أبو صالح:

- اسمعي يا أمّ صالح.

وقال الحاج فاتح:

- كنـت في (المحلّ) فخطرتم على بالـي، وشعرت بشيء يدفعني إليكـم، فقمت إلى السيـارة ولحقني ابني فؤاد، وترك المحل لعدنان، وجئت إليكم، لأتعرف على قريتكم وبيتكم، ولعل الله ساقني إليكم من أجل الشيخ صالح.

قالت الأمّ خائفة:

- ما لك وللشيخ صالح يا حاج؟

فحكى لها زوجها عَرْض الحاج فاتح، فصاحت:

لا يا حاج.. إنه ضرير.. معاق يا حسرة.. يحتاج إلى من يخدمه.

قال الحاج فاتح:

- هنـاك من يخدمه كما يخـدم سائر الطلاب.. مدرسة داخلية يا أمّ صالح، وأنا أشرف عليه، وعلى مسؤوليتي كلّ ما يحتاج إليه.. وكلّ مشايخ المعهد يعرفونني، ويسعون لإرضائي.

- ولكنـه أعمى.. غربة وعمـى... مصيبتان يا حاج.. ضربتان على الرأس يـا حـاج .. لا.. لا يا حاج.. وما زال بهـا زوجها والحاج فاتح حتى رضيت وهي تقول:

- حسبي الله ونعم الوكيل .. سلّمتك الله يا ولدي يا صالح..

فقاطعها الحاج فاتح:

- يا شيخ صالح..

فضحكت، وهي تلتقط دموعها بكفّيها:

- يبدو أنه سيكون شيخاً، كما يسمونه هنا وهو صغير.

قال الحاج فاتح:

- جهّزيه يا أمّ صالح فسوف آخذه معي اليوم.. إذا سمحتم..

سأل أبو صالح:

- لمّ العجلة ياحاج؟ الدنيا صيف، والأولاد الآن في العطلة الصيفية.

قال الحاج فاتح:

أريد أن يعمل دورة على القراءة والكتابة.

فصاحت أم صالح:

- إنه أعمى يا حاج..

قال الحاج فاتح:

سيعمل دورة على طريقة برايل..

وعندما استوضح أبو صالح عن طريقة برايل، قال:

هذه الطريقة خاصة بالمكفوفين.. تعلمهم القراءة والكتابة.. وهي تقوم على تحويل الحروف الهجائية إلى نظام حسّي ملموس من النقاط البارزة التي تتشكل بدلاً من الحروف الهجائية، هل تفهم ما أقول يا أبا صالح؟

ابتسم أبو صالح وهو يقول:

- أكون كاذباً إذا قلت لك: إني فهمت شيئاً مما تقول.

فابتسم الحاج فاتح وقال:

أنا أيضاً لم أفهم ما قيل لي عن هذه الطريقة، إلى أن رأيتها بعيني هاتين.

قال أبو صالح باهتمام، وقد فتح عينيه وأذنيه وعقله جيداً:

- اشرحها لي يا حاج فاتح أرجوك.. أنا لا أصدق أن الأعمى يقرأ ويكتب وهو بلا عينين... كيف يا حاج أرجوك؟

قال الحاج فاتح:

- هناك آلة بسيطة مثل المسطرة.. هل تعرف المسطرة؟

طبعاً أعرفها..

- مسطرة معدنية مثقوبة عدة ثقوب... ومعها مخرز بدلاًمن القلم، بهذا المخرز يكتب أو سوف يكتب ابنك صالح.

- تعني الشيخ صالح.

- عفواً عفواً.. الشيخ صالح، سوف يثبت المسطرة على ورق كرتون... ورق سميك، بمثبتين على اليمين وعلى الشمال، ثم يمسك بالمخرز، ويكتب ما يريد.

أدارها أبو صالح بعقله، فلم يستوعبها، فقال:

-وهل في رأس المخرز حبر أم رصاصة يكتب بها؟

- ابتسم الحاج فاتح، وتابع شرحه لطريقة برايل:

- ليس بالمخرز ولا في رأسه حبر أو رصاص، إنما يغرز الشيخ صالح المخرز في تلك الثقوب، فيثقب الكرتونة أو الورقة التي تحت المسطرة، ولكل حرف رمز من تلك الثقوب، فالثقب في أعلى اليسار يساوي ألفاً، والنقطتان فوق بعضهما على اليسار تعني باء، والنقطتان الأفقيتان في الأعلى تعنيان سيناً، وهكذا..

قال أبو صالح:

- و كيف يرى صالح تلك النقاط حتى يقرأها، فهّمني يا حاج فاتح أرجوك

قال الحاج فاتح:

- إن ابنك سوف يقرؤها باللمس... باللمس يا أبا صالح..

قال أبو صالح وهو ينهض من مجلسه على الطراحة:

- سوف آتيك بالمصحف، وسوف تغمض عينيك، وتلمس حروفه بأصابعك، وسوف أرى ما إذا كانت أناملك تميّز النقاط من الحروف.

أمسك الحاج فاتح بيد صاحبه أبي صالح، وجرّه إلى مقعده وهو يقول:

- اجلس يا أبا صالح.. اجلس لأشرح لك..

وبعد أن جلس الرجل قال الحاج:

- إذا غرزنا المخرز بالورقة، ولمسنا ظهر الورقة، أفلا نحسّ بأنّ هناك ثقباً؟

- بلى.

- هـذا الثقب نقطة، والثقبان نقطتان، وهكذا يمر القارئ الكفيف برؤوس أنامله على تلك الثقوب التـي تعني حروفاً، والحروف تشكل كلمات يقرؤها الكفيف بسهولة ويسر.

قال أبو صالح في استنكار:

- لا يا حاج ... ليس هناك سهولة ولا يسر، بل هناك ما يحزنون.. وأنـا مستعـد الآن أن آتيـك بكرتونـة ومخرز لتثقبها به، ثـم لتقرأها أمامي ولو بصعوبة وعسر.

فاستغرق الحاج فاتح في الضحك ثم قال بعد أن سكت عن الضحك:

يا أبا صالح، يا حبيبي... طبعاً لا أستطيع قراءتها.. هل تعرف لماذا؟

- طبعاً أعرف .. لأنها لا تُقرأ.

قال الحاج ضاحكاً:

- هـذا صحيـح .. لا تُقرأ .. لماذا؟ خرابش... مجرد ثقوب خالية مـن أي دلالـة .. ولذلك سوف يدخل الشيـخ صالح دورة مع عدد من الأكفّاء ليتعلم الكتابة والقراءة بهذه الطريقة التي اسمها؟

قال أبو صالح:

- نسيت اسمها.

- قال الحاج فاتح:

- احفـظ اسمهـا جيداً يا أبا صالـح، واحذر أن تنسـاه.. اسمها: طريقة برايل لتعليم المكفوفين القراءة والكتابة.

قال أبو صالح:

- لا أستطيع أن أحفظ اسمها إلا بعد أن يتعلمها ولدي الشيخ صالح ويعلمني إياها.

- وماذا تعمل بها، وأنت ذو عينين واسعتين؟!

- حتى أذاكر مع الشيخ صالح، لأعرف مدى حفظه وفهمه، ولأطئمن إلى إملائه، فأكثر الأولاد وحتى الكبار الآن يغلطون في الإملاء.

الفصل الثاني

لـم تمض أيام علـى وجود الشيخ صالح في المعهد الشرعي، حتى لفـت إليه انتباه الطـلاب والمشايخ، وكان محط الأنظـار، ولايناديه أحـد إلا باسـم الشيخ صالـح.. هذا الفتى الضريـر الذي عمل دورة في القراءة والكتابة على طريقة (برايل Braille) التي تجعل الأعمى كالبصيـر فـي القراءة والكتابـة، كانوا ينظـرون بإعجـاب إليه وإلى مسطرتـه المعدنيـة المثقبة، ومخرزه الذي هـو القلم الذي يكتب به عبر ثقوب تلك المسطرة، على أوراق غليظة كالكرتون.

تجمّع الطلاب حول الشيخ صالح مرّة، وانطلق هذا يشرح لزملائه الطـلاب كيف يمكنه أن يكتب ويقرأ... كتـب بعض العبارات، ثم عاد يقرؤهـا عـن طريق اللمس، والطـلاب الصغار مندهشـون لما يفعله الشيـخ صالـح.. حضر مدرّس التفسير، فوجد الطـلاب متجمعين حـول الشيخ صالح . دق بجميع يده علـى المنضدة.. صاح بالطلاب ليجلسـوا فـي أماكنهم، ولكنهم لـم ينتبهوا، واستمـرّوا في صياحهم وإبـداء إعجابهـم بما يفعله الشيخ صالح الـذي كان يحاول - عبثاً - تهدئتهم والانتباه لحضور الأستاذ.

صـرخ الشيخ عبدالرحمن بالطلاب، فأسرعوا إلى أماكنهم، وظهر الشيـخ صالح مع مسطرته وقلمه وأوراقه السميكة وقد وضع مجلداً ضخماً أمامه.

سأله الشيخ عبدالرحمن بغضب:

- مـا هـذه الفوضى يـا شيخ صالح؟ مـاذا يفعل هـؤلاء العفاريت عنـدك؟ وما هـذه الأدوات المعدنيـة التي تضعها أمامـك، وما هذا المجلد الكبير الذي تضمه إلى صدرك؟ أجب يا صالح.. أجب...

صعد الدم إلى أذني صالح ووجنتيه الناصعتي البياض حتى غدت كالوردات الجورية الحمراء.. نهض عن مقعده ثم قال في أدب:

- كانوا (يتفرّجون) على آلتي الكاتبة هذه.

ورفع بيديه مسطرته المعدنية وقلمه المخرزي، ثم تابع:

- وكنت أشرح لهم كيف أكتب بها، وكيف أقرأ.

سأل الشيخ عبدالرحمن:

- هل تستطيع أن تكتب وتقرأ بواسطة هذه الحديدة، وهذا المخرز يا صالح؟ أم أنك تضحك على زملائك، وتسخر من ثقتهم بك؟

قال صالح في ألم:

- معاذ الله يا أستاذي أن أكون من الساخرين، وقد نهانا الله تعالى عن السخرية فقال، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ وأنا أظنهم خيراً مني.

نزل الشيخ عبدالرحمن من المنصة التي يجلس عليها، وتقدّم من صالح، وأخذ بيده المسطرة والمخرز، وقلّبهما بين يديه، ثم جسّ الورق السميك، وهو يقول:

- أنت تكتب بهذه وهذه على هذا الورق يا صالح؟

- فهزّ صالح رأسه وهو يقول:

نعمْ يا أستاذ.

قال الأستاذ وهو يعيد ما بيده إلى صالح:

- خذها واكتب أمامي.

قال الطالب عبدالله:

- صدّقه يا أستاذ، فقد رأيناه وهو يكتب، ثم وهو يقرأ ما يكتب.

صرخ الأستاذ بالطلاب الذين أمَّنوا على كلام زميلهم، ثم قال لصالح:

- اكتب أمامي.

قال أحمد:

- على مبدأ «ولكن ليطمئن قلبي»، أليس كذلك يا أستاذ؟

فرماه الأستاذ بنظرة غضوب، ثم قال لصالح:

- اكتب يا صالح..

- ماذا أكتب؟

- اكتب سورة الإخلاص.

اشرأبّت الأعناق نحو كفّ الشيخ صالح، حتى إذا انتهى من كتابة سورة الإخلاص، قال له الشيخ:

- اقرأها يا شيخ صالح.

- ابتسم الشيخ صالح، وهو يلمس بأطراف أنامله ما كتب، وقرأ ما كتب.

أخذ الشيخ عبدالرحمن الورقة بين يديه، ولمسها بأنامله، فأحسَّ بأنها ثقوب مدبّبة، كتلك التي تظهر خلف الورقة التي تغرز بها دبوساً.. ثم قال:

- كيف عرفت قراءتها؟

قال عليّ:

- لأنه يحفظ سورة الإخلاص وأختيها يا أستاذ.

حدجه الأستاذ بتأنيب:

- اسكتْ أنت..

ولكنّ علياً زرع الشك في نفس الأستاذ، فقال لصالح:

- اكتب ما أمليه عليك..

وأشار إلى غسان أن يكتب سراً ما سوف يمليه على صالح.

ركز صالح مسطرته على أوراقه، وضبطها جيداً بمثبتين عن يمين وشمال، ثم قال:

- تفضّل يا أستاذ.

أملى عليه الشيخ صفحة كاملة، ثم طلب منه أن يقرأها له، فقرأها كما أملاها الشيخ، وغسّان يتابع ما يقرأ، ويهزّ رأسه للشيخ، كأنه يقول له: تمام يا أستاذ، قال الشيخ:

- طيّب طيّب يا شيخ صالح، جميل جداً.

وأمسك بالمجلد بين يديه، فسأله الشيخ صالح:

- هل أنت متوضّئ يا أستاذ؟

نعم أنا على وضوء.. ولكن .. لماذا هذا السؤال؟

- لأن هذا مصحف .. مصحف كامل، مكتوب بطريقة برايل.

قلّب الشيخ أوراق المصحف.. لمس حروفه بأنامله،.. أغمض عينيه، وهو يلامس الحروف أو النتوءات البارزة، وكان الطلاب يتابعون الأستاذ فيما يقول ويفعل، وعندما رأوه يغمض عينيه انفجروا ضاحكين.

صرخ فيهم الأستاذ، ثم انفجر هو ضاحكاً وهو يقول:

- إذا كنت لم أستطع أن أقرأ وأنا مفتوح العينين، فهل أستطيع أن أقرأ وأنا مغمض العينين؟! من حقّكم أن تضحكوا، ولكنْ.. بأدب.

ثم طلب من الشيخ صالح أن يفتح المجلد عشوائياً، ففتح صالح المجلد وهو يقول:

- تعني هذا المصحف يا أستاذ؟

- قال الأستاذ:

- نعم .. اقرأ من هنا..

ووضع أصبع الشيخ صالح على مكان أسفل الصفحة، فقرأ صالح آخر كلمة في الآية، ثم تابع القراءة .

سأله الشيخ:

- أي سورة هذه يا شيخ صالح؟

- رفع صالح كفّه إلى أعلى الصفحة، ومرّ بأنامله على ما هو مكتوب فيها وقال:

- هذه سورة المائدة.

ثم نزل بيده إلى المكان الذي كان يقرأ فيه، وقال:

- نحن نقرأ الآية الثانية والتسعين.

قال الأستاذ:

- أعطوني المصحف.

فامتدت إليه أكثر من ثلاثين يداً تقدّم له المصاحف.

أخذ الأستاذ مصحفاً، وفتحه على سورة المائدة وعلى الآية الثانية والتسعين وأمر الشيخ صالحاً بالقراءة، فتلا الشيخ صالح صفحة كاملة بصوته العذب، وترتيله الجميل، وكان كلما توقّف عن القراءة، هتف الطلاب: الله. فنبه الشيخ تلاميذه إلى أن هذا الذي يفعلونه غير وارد، والأولى بهم أن يستمعوا وينصتوا ويتأملوا ويتفكروا ويخشعوا، فلزم الطلاب الصمت، حتى أنهى صالح تلاوته، وبعضهم في حالة انتشاء، وبعض آخر بلغ به التأثر حدَّ البكاء خشوعاً وخوفاً وطمعاً.

استوقف الأستاذ تلميذه صالحاً عن التلاوة، ثم قال له:

- سيكون لك شأن يا شيخ صالح، فاتّق الله ولا تبطر.

قال صالح في ثقة:

- لن تبطرني نعمة يا أستاذ، فأنا أعرف نفسي... أنا ولد أعمى، رزقه الله هذا المعهد العظيم، وهيّأ له شيوخاً فضلاء وزملاء نجباء.. أنا لن أبطر.

قال غسان:

- حتى لو صرت وزيراً كطه حسين؟

أجاب صالح:

- حتى لو صرت وزيراً يا أخي فسوف أبقى أذكر نشأتي الأولى في قريتي الفقيرة، وأسرتي المستورة الحال..

قال الشيخ عبدالرحمن في تأثر:

- بارك الله فيك يا ولدي.

ثم عاد إلى منصته، وجلس خلف منضدته وقال:

- نبدأ الآن درسنا.

شرع الشيخ عبدالرحمن يلقي درسه في التفسير، وكان درس اليوم تفسير سورة (عبس) طلب من صالح أن يقرأ السورة.. تنحنح صالح، ثم انطلق يقرأ، فقال له الأستاذ:

- اقرأ من المصحف الذي معك يا شيخ صالح.

فقال عبد الله:

- الشيخ صالح يحفظ القرآن كلّه يا أستاذ.

وارى الأستاذ ابتسامته خلف تقطيبة مفتعلة، وقال:

- أعرف أنه يحفظ كتاب الله، ولكن هذا درس... ثم.. ما الذي يدعوك إلى الكلام عنه؟ أليس له لسان يتكلم به؟

فقال عليّ:

- الشيخ صالح، وعبدالله، وأحمد، وأنا، متكافلون متضامنون ياأستاذ.

أشرق وجه الأستاذ المُشْرَب بحمرة قانية، ثم قال:

- يعني ... عصابة.

فقال صالح:

- كعصابة أهل بدر يا أستاذ، وقد دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لتلك العصابة..

- لتلك العصابة.. وليس لعصابتكم.

- الله أعلم.. ولكني أظن أنني وأفراد العصابة، امتداد لعصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لاحظ الأستاذ فصاحة الشيخ صالح وثقافته، فسأله:

- من أين لك هذه الفصاحة ياشيخ صالح؟

قال صالح:

- إمام قريتنا طالب علم مجتهد، وقد درست على يديه كتاب (قطر الندى) ثم بدأ بألفية ابن مالك وشرح ابن عقيل، وقبل أن نتوغّل فيها، جيء بي إلى هذا المعهد الأغرّ..

- هل قرأت شيئاً من كتب الأدب؟

- نعم ... قرأت كتاب (نكت الهميان في نكت العميان) للصلاح الصفدي، ثم كتاب (الكامل) للمبرد، و(البيان والتبيين) للجاحظ، وغيرها من الكتب العصرية، لعلي الجارم، وطه حسين، والرافعي وباكثير، وسواهم.

- ما شاء الله ما شاء الله .. وفهمتها؟

قال صالح، وظلُّ ابتسامة يرتسم على شفتيه القرمزيتين:

- لماذا أقرؤها، إذا كنت لا أفهمها؟

- كم عمرك يا شيخ صالح؟

- أشرفت على عامي الثالث عشر.

- بارك الله فيك يا ولدي.. والآن افتح مصحفك، واقرأ لنا سورة (عبس) بترتيلك الجميل.

قرأ صالح سورة عبس، وتألق الأستاذ في تفسيرها، وما يؤخذ منها من دروس وعبر.. كان يشرح ويفسر، وعيناه على تلميذه صالح، الذي كان يكثر من الأسئلة حول عبدالله بن أم مكتوم، كأنه كان يرغب في معرفة شيء عن حياته، وكان الأستاذ يجيبه إلى ما يطلب، وكان ما قاله له عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه:

- اسمه عمرو بن أمّ مكتوم، ولكنه معروف باسم عبدالله، وهو من بني فِهّر، أسلم في مكّة المكرمة، وكان ثاني من هاجر إلى المدينة بعد مصعب بن عمير، وصار يعلّم الناس القرآن الكريم مع مصعب.

وعندما هاجر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، صار المؤذِّنَ الثاني بعد بلال رضي الله عنه، وكان رسول الله يقول لأصحابه الكرام في رمضان:

«إنّ بلالاً يؤذّن بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم».

وعندما سأل صالح:

- وماذا عن سبب نزول هذه الآيات في أوائل سورة عبس؟

أجاب الأستاذ:

- أتـى عبدالله بـن أمّ مكتوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عنده أحد عظماء قريش، كان النبيّ يدعوه إلى الإسلام، ويطمع فـي إسلامـه، وكان عبدالله ممـن أسلم قديمـاً .. أقبل علـى النبي، وانطلـق لسانـه يسأل النبي عـن بعض أمور دينه، ويلـحّ في السؤال، والنبي مشغول بذلك القرشي المشرك، وتمنى لو يكف ابن أم مكتوم عـن السؤال حتى ينتهي مـن مخاطبة ذلك الرجل، ودعوته، ولكنّ ابن أمّ مكتـوم كان حريصـاً على أن يجيبه النبي -صلى الله عليه وسلم-، الأمـر الـذي جعل النبي الكريم يعبس في وجهه، ويعرض عنه لحظة، ويقبل نحو الآخر، فأنزل الله هذه الآيات معاتباً رسول الله.

فهتف الطلاب: صلى الله عليه وسلم.

وتابع الأستاذ:

- فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه، ويقول له:

(مرحباً بمن عاتبني فيه ربي).

قال الطالب عبدالله:

- مـع أن ابـن أمّ مكتوم أعمى، ولا يرى عبوسـ النبيّ الكريم.. مع ذلـك، يعاتبـه ربُّه؟ أنا تلقيت درساً عظيماً مـن هذه الآيات... تعلمت الـذوق.. الذوق الرفيع في التعامل مـع الآخرين، مهما كانوا ضعفاء، ومهما كنت قوياً وعظيماً.

- وكيف انتهت حياته يا أستاذي الفاضل؟

أجاب الأستاذ:

- رآه أنس بن مالك في معركة القادسية العظيمة، وعليه درع،ومعه راية سوداء يحملها، وقد استشهد في تلك المعركة التاريخية الفاصلة

التـي انتصر فيهـا المسلمون على الفرس انتصاراً أزال دولتهم، وفتح المشرق كله أمام جيوش المسلمين.

فعلّق غسان:

- وسوف يرزقك اللّه الشهادة يا شيخ صالح.

فقال صالح:

- أرجو ذلك.. أرجو ذلك، فليس أعظم من الشهادة في سبيل اللّه تعالى يا صاحبي.

قال غسان ضاحكاً:

- أعنــي الشهادة الشرعية لهــذا المعهد، وليس الشهادة في سبيل اللّه.

- ولمــاذا لا تدعــو لي أن يرزقنــي اللّه الشهادة فــي سبيله؟ فهي الشهادة الحقيقية، وأما شهادة المعهد وغيرها من الشهادات العلمية، فلا قيمة لها عندي.

قال أحمد:

- كيف يا شيخ صالح، ومداد العلماء يوزن بدماء الشهداء؟

قال صالح:

- أرجــو أن أنــال شرف العلم وشرف الشهــادة في سبيل اللّه، كما نــال ابن أمّ مكتوم شرف صحبة رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم-، وشرف العلم، وشرف الشهادة في سبيل اللّه تعالى.

الفصل الثالث

مرت الأيام والسُّنون، والشيخ صالح يحقق نجاحاً تلو نجاح... كان دائماً الأول على صفّه.. كان جسمه ينمو نمواً عجيباً، حتى صار فارع الطول، مديد القامة، وكان نظيف اللباس، أنيق الهندام، يصفف شعره بيده، ويلمّع حذاءه، ويكوي ملابسه، ويتعطر، ولا يخرج من المهجع إلا فـي كامل أناقته، وكان يخدم نفسه وأساتذته وزملاءه، تدفعه مروءته وذوقه الرفيع إلى تقديم العون إلى من يعرف ومن لايعرف، حتى غدا عَلَماً في المعهد الشرعي.

وكان لا يغيب عن الحاج فاتح، ولا ينسى له فضله، وكذلك الأمر بالنسبة للحاج فاتح.. كان يغدق عليه.. يعطيه مصروفه الشهري في الأول من كل شهر، ويشتري له اللباس الشتويّ، كما يشتري له اللباس الصيفي، ويقول للشيخ صالح ملاطفاً ومخفّفاً:

- سوف أسترد منك ما أدفعه لك..أنا أسجّل كلَّ شيء .. فاطمئن.

فيحمرّ وجه صالح حياء، ويقول للحاج فاتح:

- وأنا لن أنسى معروفك هذا يا عمّي، وأرجو من الله القدير أن يقدرني على الوفاء، يا أبا النخوة والكرم.

★★★

ذات يوم، زار المدرسة وزير المعارف، وتفقّد الطلاب في صفوفهم، ولاحظ الفتى صالحاً بين الطلاب، فسأل أستاذه:

- هل هذا طالب؟

- قال الأستاذ في ارتباك:

- هذا طالب مستمع.

فنهض صالح وقال:

- عفواً يا معالي الوزير، أنا طالب نظامي كسائر الطلاب، وأنا الأول على صفي... أمضيت ستّ سنين في هذا المعهد الكريم، وأنا الأول عليهم، وفي سائر الموادّ.

اقترب الوزير ومرافقاه من صالح، ووضع كفّه على كتفه، وهزّه، ثم قال:

- ما اسمك يا بنيّ؟

- صالح المزرعاوي، ويدعونني بالشيخ صالح منذ كنت صغيراً في قريتي.

سأل الوزير:

- من أي قرية أنت؟

- من قرية (الطيبة)، هل سمعت بها يا معالي الوزير؟

قال الوزير:

- بل أعرفها جيّداً وأعرف أهلها.

ابتسم صالح ابتسامة عريضة، وهو يقول:

- وأنا أعرفك يامعالي الوزير.. لقد زرت مزرعتك في قريتنا قبل عشر سنين، وقد ضايقك أولاد القرية وهم يلاحقون سيارتك حتى كدت تعود إلى المدينة لولا...

تابع الوزير:

- لولا أن زوجتي رأتك تحيينا بيدك ولسانك.

تابع صالح:

- وعندما رأتني أعمى، نزلت من السيارة مع ابنها الصغير الرقيق، ودسّت في جيبي بعض المال.

قال الوزير:

- فرفضت أن تقبله منها، وأعدته إليها.

قال صالح:

- ولكني تراجعت وأخذته من طفلك الرائع (حسان)

قال الوزير:

- ومـا يزال (حسان) يفخر على أمّه بأنـك رفضتَ هديتها وقبلتَ الهدية منه.

قال صالح:

- ظننتكـم نسيتم هذه الحادثة العابـرة يامعالي الوزير، فقد مرت عليها عشر سنين.

قال الوزير:

بعض الحوادث يا ولدي لايمكنك أن تنساها، مع أنها تبدو صغيرة.. لأنها تترك في النفوس أثراً لا تمحوه الأيام..

قال صالح:

- أرجو لكم كل خير، وأبقاكم الله ذخراً للمروءة والكرم.

فقال أحد المرافقين:

- وللشعب والوطن.

قال صالح:

- وللشعب والوطن.

تقدّم المرافق الثاني للوزير، ودسَّ في جيب صالح بعض النقود، فغضب صالح، وأعادها إليه وهو يقول:

- عفواً، يا أستاذ، أنا لا أقبل صدقة.

تقدّم الأستاذ المدرس وقال:

- لا ياصالح.. النبيّ -صلى الله عليه وسلم- كان يقبل الهدية.. خذها من السيد معاون معالي الوزير:

هز صالح رأسه، وأبدى أسفه لهذه المقارنة بين الصدقة وبين الهدية التي كان يقبلها الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

-إذا أحب معالي الوزير أن يخصص لي راتباً شهرياً، مهما كان ضئيلاً فإنني أتقبله، وأشكره على ذلك، أمّا الصدقات، فلا أقبلها.

قال الوزير:

- سوف ننظر في الأمر، أمّا الآن، فأرجو أن تقبل هدية السيد المعاون. وهي ليست صدقة، إنها هدية.

نهض غسان وقال:

- اسمع يا شيخ صالح، إذا لم تأخذها أنت، أخذتها أنا.

فضحك الطلاب وضجّوا، وحاول الأستاذ تهدئتهم، فقال له الوزير:

- دعهم يا فضيلة الشيخ، دعهم.

بعد أيام دخل الموجه إلى الصفّ، واصطحب معه الشيخ صالحاً إلى الإدارة، حيث سائق الوزير مع مدير المعهد يتحدثان حول صالح، رحّب السائق بصالح، ثم قال له:

- معالي الوزير يسلّم عليك، ويدعوك إلى الغداء في بيته اليوم.

فوجئ صالح بهذه الدعوة، ولكنّ قلبه كان يرقص من الفرح، فما كان يحلم أن يدعوه أحد أساتذته إلى بيته، فكيف بالوزير نفسه؟ لكن ... لماذا هذه الدعوة؟ ماذا وراءها؟ هل هي للعطف عليّ، أم لإكرام العلم وطلاب العلم؟ أم أنه قصّ على زوجته ما جرى، فطلبت هي أو أبناؤها أو كلاهما، أن يدعوني إلى الغداء.

لكنّ.. من أنا؟ ومن أكون حتى يفكّر بي هؤلاء؟ لابد أن في الأمر سراً... صحيح أنني طالب متفوق على زملائي، وربما كنت أذكى منهم جميعاً، ولكن هذا ليس مسوّغاً لمعالي الوزير ليدعوني إلى بيته... وفيما كان الشيخ صالح سارحاً مع خياله، ردّه السائق إلى واقعه، عندما أمسك بذراعه، ليسحبه إلى السيارة الفارهة التي تنتظر أمام باب المعهد.

سحب الشيخ صالح يده، وتحرّر من قبضة السائق، وهو يقول:

- دع ذراعي، فأنا أعرف طريقي.

عجب السائق من هذا التلميذ الأعمى، كيف يسير بلا عكاز، ولا قائد يقوده إلى حيث يريد، وسار إلى جانبه، وهو ينظر إليه، فرآه يمشي كأي بصير.. يمشي بثقة، ويتحدث بثقة، رافعاً رأسه، ناصباً قامته، معتداً بنفسه، حتى لا يستطيع من لا يعرفه أن يميزه من سائر زملائه، خاصة بعد أن يضع نظارته السوداء على عينيه.

في بيت الوزير كان الوزير وابنه حسان في انتظار الضيف، وعندما سمعا صوت السيارة، بادرا إلى الخروج، ليستقبلاه في الحديقة بلهفة، والوزير يتابع ولده بنظراته.

لقــد بــدا صالح أكبر ممــا عرفه حسان.. طويــلاً، وسيماً، نظيفاً، مرتّباً، تسبقه رائحة عطره، وفرح لوجود النظارة على عينيه، حتى لا يرى عينيه الغائرتين المطبقتين، فيزداد حزنه عليه لهذا التشوه الذي لا يد له فيه، فقد وُلد معه... وُلد هكذا...

جلســ صالح على أريكــة فخمة، وجلس الوزير على يمينه، وحسان علــى يساره، يرحّــب به، وهو يجيب على ترحيبــه بكلمات مقتضبات واثقات.. كانت كقطرات الشهد تخرج من بين شفتيه.

قال الوزير:

- حدّثت حسان عنك، فأصرّ على أن ندعوك إلى الغذاء اليوم.

قال صالح:

- أنا سعيد جداً باهتمامكم بشخصي الضعيف يا معالي الوزير.

قالت أمُّ حسان:

- بــل نحــن السعداء بــك يا ولــدي.. والله منذ رأيتــك قبل عشر سنيــن، وأنا أحنّ إلى لقائك.. ما زالــت كلماتك الحلوة الطفولية ترنّ في أذني... وما زلت مندهشة من قوّة إحساسك، ومن ثقتك بنفسك، ومــن حسن أدبك، وروعة تصرّفك معنا، ومحاولتك تقديم المساعدة لنا، وأنت لا تعرفنا، ونحن لا نعرفك.

- قال الوزير:

- علــى مهلــك على الشيخ صالح يا أمّ حســان، يكاد حياؤه يقضي عليه.

قال صالح في حياء:

- نحن في القرية هكذا يا سيدتي، نخدم من نعرف ومن لانعرف، فكيف إذا كان من نخدمهم مثلكم، في الذوق، والكرم، وحبّ المساكين من أمثالي.

قال الوزير:

- لـن تكون فقيـراً ولا مسكيناً ياشيخ صالح بعـد اليوم، بإذن الله وفضله.

- كيف؟

- سـوف نخصص لك راتبـاً شهرياً يعينك على حياتك في المعهد الشرعي.

- وبعد المعهد الشرعي؟

- تدخل الجامعة إن شاء الله، وسوف يزداد راتبك.

قال صالح في حياء جمّ:

- بارك الله فيك يا معالي الوزير.

- قال الوزير:

- ولديّ مفاجأة سارّة لك.. تعال معي..

أخـذ الوزير بيد صالح، وتقدّم به بضع خطوات، ثم وضع يده على صندوق كرتوني، وقال له:

- هذه أحدث آلة كاتبة على طريقة برايل.. إنها هدية لك.

قال صالح:

- كـم أنـا سعيد بكم يـا معالي الوزير، فقد قـرأت في مجلتنا عن ظهور آلة كاتبة بمواصفات عالية اسمها (بيركنز) دعوت في سرّي أن يرزقني الله مثلها.

قالت أمّ حسان:

- واستجاب الله دعاءك يا ولدي.

وقال حسان:

- ليتك دعوت بما هو أكبر منها.

فابتسم صالح ابتسامة عريضة، وقال:

- طموحاتـي كثيـرة، وكبيرة، والناس يقولـون: العين بصيرة واليد قصيرة، أما أنا..

فقاطعه الوزير:

- لا تكمل يا ولدي. نحن عيناك، ونحن يداك، فلا تبتئس.

قال صالح، وقد فرّت دمعات من عينيه المطفأتين:

- قالـت لـي أمّي مـرّة: إذا رأيت ليلة القدر، فسـوف أدعو الله أن يرزقك عينين جميلتين.. ويبدو لي أنها ليلة القدر، ودعتْ لي.

قالت أم حسان:

- ما رأيكم في زيارة أم صالح؟

قال صالح:

- ولكنها في القرية.

قالت أم حسان:

- نزورها، ثم نذهب جميعاً إلى المزرعة.. اتفقنا؟

قال الوزير وابنه:

- اتفقنا...

وقال صالح في تردّد:

- أهلاً بكم، وإن كان المقام لا يسمح.

قال الوزير:

- أيّ مقام يا شيخ صالح.. نحن نعتزّ بك.. وسوف يكون لك مستقبل رائع إن شاء الله.

قالت أم حسان:

- ما رأيكم في استكمال الحديث على المائدة؟ فالطعام جاهز.

وعلى المائدة كان صالح يأكل بذوق رفيع، وحسب الأصول المتّبعة في الأسر الراقية.. كان يستخدم الشوكة والسكين بمهارة، وهو ما لفت أنظارهم إليه.. كانت تُقدَّم له ألوان الطعام، فيتناول منها القليل، ولم يكن مضطرباً أو خجلاً أو خائفاً من أن يرتكب ما يسيء إليه أثناء الطعام. وكان تناوله للفواكه في منتهى الذوق.

قالت أمّ حسان في سرّها:

«ما هذا الصبيّ؟ يبدو أكبر من سنّه، وأنه ينحدر من أسرة عريقة، من سكان القصور، وليس من أسرة فقيرة.. ما أفهمَه.. ما أرفعَ ذوقه.. يا حسرة عليه.. ليته كان بصيراً».

وجاء الشاي، تناول كأسه، ووضعه أمامه دون أن يُحْدث أي صوت، ثم حرك السُّكر بالملعقة بهدوء، ثم رشف رشفات منه دون أن يصدر عن شربه أي صوت.. فازداد إعجاب الأسرة الراقية بحسن تصرّفه على المائدة، وفي تناول الفاكهة، وشرب الشاي.

سأل الوزير:

-ما هي طموحاتك يا شيخ صالح؟

ابتسم صالح وقال:

- دعك منها ياسيّدي الوزير، فهي كثيرة، ومتعبة.

- مثل ماذا؟

- يعني .. أنا أطمح أن أكمل دراستي العالية.

فقالت أم حسان:

- وتصبح دكتوراً قدّ الدنيا.

فقال صالح:

- أو أكثر!

فضحك الجميع بصوت عال، إلا صالحاً، فقد تبسّم ضاحكاً، دون أن يُسْمَع له صوت.

سأل الوزير:

- ثم ماذا؟

أجاب صالح:

- قريتي فقيرة، وأكثر أهلها بائسون، أمّيون.. أتمنى أن تكون فيها مدرسة حتى يتعلم أطفالها فيها، ومدرسة ليلية يتعلم فيها الكبار، لنقضي على الأميّة.

قال الوزير:

- سوف نبني فيها مدرسة ابتدائية للصغار، ولكن المدرسة الليلية مشكلة، تحتاج إلى من يرعاها.

قال صالح بفرح:

- معلم المدرسة يدرّس الكبار في المساء، لقاء راتب أو تعويض مناسب نجمعه من أهل القرية، وسوف يساعده إمام المسجد.. ما رأيك يا معالي الوزير؟

قال الوزير بفرح:

- لك هذا أيها الفتى النبيل... ثم ماذا؟

قال:

- قرب معهدنا دكان صغير، لرجل أعمى، يصنع كراسي قش صغيرة... ليتني أستطيع أن أفتح دكاناً مثله في قريتي.

سأل الوزير:

- هل في قريتك...؟

فأكمل صالح:

- في قريتي أربعة عميان كبار، لا عمل لهم، ولهم أسر وعائلات، ولو تعلّموا صناعة كراسي القشّ، لكان لهم دخل يُنفقون منه على عائلاتهم.

قال الوزير:

- الأمــر بسيط .. عندما نزور القرية، نشتري أرضاً، ونعمر عليها دكانــاً، ونطلب من الرجل الكفيف الذي يصنع الكراسي هنا، أن يقيم فــي القرية أياماً، يعلّم فيها أولئك الأكفاء صناعة الكراسي.. وسوف نشتــري لهم ما يلزمهــم من عدة، ومن قش وخشــب وسواها إن شاء الله تعالى.

قال صالح في فرح:

- وسوف أسافــر إلى القرية كل خميس، لأعلّم المكفوفين القراءة والكتابة.

قال الوزير:

- وسوف نشتري لهم كل ما يلزم لتعليمهم إن شاء الله تعالى.

بلغ التأثر مداه في نفس الشيخ صالح، وظهر الانفعال على وجهه، ثــم رفع يديه إلى السماء، وابتهل إلى الله بهذا الدعاء الذي خرج من صميم قلبه. قال:

- يا ربِّ... أنت العليم بحالي، أنا العبد الفقير القليل الضعيف..

يــا ربِّ.. أنت تعلــم أني ما طلبت شيئاً لنفسي، وكلّ ما طلبتُه لأهل قريتي المساكين، ولأقراني من المكفوفين البائسين.

ياربِّ .. أنت الذي هيأت لعبدك الأعمى صالح هذا الرجل الصالح، هــذا الوزيــر الرائع الــذي أغدق عليّ وعلــى أهل قريتي مــا أنت به عليم.. اللهم فاجزه عنّا كلَّ خير.. متّعه وأهله وكل من يحبّ، بالصحة والعافية، وأغدق عليه أضعاف أضعاف ما أغدق علينا..

اللهمّ أكرمه كما أكرمني، بل أكثر.

اللهـمّ زده مـن المال الحلال، فقـد قال نبيك وحبيبنـا صلى الله عليـه وسلـم: «نعـم المال الصالـح للرجـل الصالح» وأشهـد أنه من الصالحين.

اللهمّ ارفع شأنه عندك وعند الناس.. يا أرحم الراحمين... يا أكرم الأكرمين.. يا خير مسؤول..

وتهـدّج صوت صالـح، فاختنقت الكلمـات، وأفصحت الدموع عما يجـول فـي نفس هذا الفتى الـذي يحبّ الخير لإخوانـه وأهل قريته وللناس، كما يحبّه لنفسه.

الفصل الرابع

صبيحـة يوم الجمعة، توجّهت سيارتان فارهتان إلى قرية (الطيبة) فـي إحداهمـا كان الوزيـر وأهله، وفي الثانية كان الحـاج فاتح وابنه فؤاد، وصالح.

كان الحـاج فاتح وولده والشيخ صالح قد وقفوا في ساحة القرية، لاستقبال الوزير الذي ترجّل من سيارته، فأسرعوا نحوه مرحّبين.

حمـل سائـق الوزير الهدايا التي جاء بها الوزيـر إلى أسرة صالح، وسار خلف الوزير وصحبه، وبعد أن وضعها في منزل أبي صالح، عاد إلى السيارة ليتابع طريقه إلى المزرعة القريبة من القرية مع الأسرة، وبقي الوزير مع أصحابه.

رحّـب أبو صالـح بالضيوف أجمل ترحيـب، وكان التأثر بادياً في كلمته وعلى تقاسيم وجهه المغضَّن، ثم توجّه إلى الحاج فاتح وقال:

- ياحاج فاتح.. ما كل هذه الهدايا؟

فسارع الحاج فاتح إلى القول:

- هذه هدايا معالي الوزير يا أبا صالح.

عندهـا عرف أبـو صالحٍ أن الرجل الغريب وزيـر، وليس أخَ الحاج فاتـح، فأقبـل عليـه مرحّباً مـن جديد، وقـد أشرق وجهـه المتعب، وضحكت تقاسيمه التي زادت الأيام من قساوتها.

- شكراً لكم يا معالي الوزير... كثّرتم الخير كثّر الله خيراتكم.

قال الوزير في حياء:

-عفواً يا أبا صالح... أشياء بسيطة أرجو أن تقبلوها.

التفت أبو صالح إلى ولده وقال:

- ما كان ينبغي أن تسمح لمعالي الوزير أن يكلف نفسه كل هذا.

قال صالح في حياء:

- ومن أكون أنا - يا أبي - حتى أسمح أو لا أسمح لمعالي الوزير؟ والله لـو حمل كل ما فـي أسواق المدينة إلى هنا، لما تجرأت بالتفوّه بكلمة.

قال أبو صالح:

- هذا صحيح يا ولدي.. ولكنْ..

قاطعه الوزير:

- دعنـا مـن (لكنْ) يا أبا صالح، واطلب لنا فنجاناً من القهوة، فأنا لم أشرب قهوة الصباح بعد.. أحببت أن نشربها معاً.

- وسوف تشرب أطيب قهوة، من أطيب يد... من يد الشيخ صالح يا معالي الوزير.

التفت الوزير إلى صالح، فرآه ينهض مبتسماً وهو يقول:

- عمّـي الحـاج فاتـح يحبّ قهوتـي يا معالـي الوزيـر، وأرجو أن تعجبك.

ثـم سار باتجاه المطبخ، وسار أبوه بضيوفـه إلى غرفة متواضعة، ليس فيها كرسيّ، ولا منضدة..

جلسـوا علـى الطرحات النظيفـة المفروشة فـوق حصير نظيف، وأسندوا ظهورهم إلى وسائد نظيفة أيضاً.

قال أبو صالح في خجل:

- لا تؤاخذونــا يا معالي الوزير، فنحن ناس بسطاء، فقراء، ولكننا نعجبكم إن شاء الله.

قال الوزير:

- فيكم البركة يا أبا صالح.

وقال الحاج فاتح:

- الفقــر ليســ عيباً يا أبا صالــح.. لقد بذلتَ مــا تستطيع، ولكن قسمتــك هكــذا.. وأنا أشهد أمام الله وأمام كل الناس، أنك لم تقصر في استصلاح أرضك، ولكن المحل ضرب المنطقة كلها.

قال أبو صالح:

- والله يــا صديقــي ياحاج فاتح، كنــت أعمل أنــا وزوجتي وبناتي وابني هذا الكفيف، ليل نهار، حتى سمّانا إمام الجامع عشاق الأرض، ولكــن.. كما قلــت: هذه هي قسمتنا، وهذا هــو رزقنا الذي كتبه الله لنا.

ملأ صالح باب الغرفة وهو يلج، حاملاً صينية القهوة، وعليها ثلاثة فناجين من القهوة، وكأسان من الشاي، وسار حتى وقف أمام الوزير، وقال له:

- أهلاً بكم يا معالي الوزير في هذا البيت المتواضع.. تفضّلوا.

ابتسم الوزير ابتسامة عريضة وهو يقول:

- هل لنا الشاي أو القهوة؟

- كلهــا لكــم يا معالــي الوزير. ولكنّــي رأيت أن أشــرب الشاي أنا وصديقي فؤاد، بينما أنتم، يا معالي الوزير، تشربون القهوة.

التفت الحاج فاتح إلى ولده فؤاد وسأله:

- هل أنت طلبت الشاي يافؤاد؟

أجاب فؤاد:

- لا يا أبي.

فالتفت إلى أبي صالح وقال له:

- بارك اللّه لك في هذا الفتى النجيب الشيخ صالح يا أبا صالح

ردّ أبو صالح:

- إنه ولدكم، وتربيتكم يا حاج فاتح.

قال الشيخ صالح:

- إذا سمحتم لي يا معالي الوزير، ويا عمي الحاج فاتح، ويا أبي الحنون.. سوف نفطر بعد قليل.

قال الوزير:

- لا.. دعونا الآن من الفطور وغيره، نحن جئنا لمهمّة معيّنة، وأرغب في إنجازها اليوم.

سأل أبو صالح:

- نحن تحت أمرك يا معالي الوزير.

قال الحاج فاتح:

- فهمت من الشيخ صالح، في الطريق،أن معاليكم سوف تشترون أرضاً لبناء مدرسة عليها، وإلى جانبها دكان لتعليم المكفوفين هنا في القرية.

قال صالح:

- والقرى المجاورة يا عمي.

سأل أبو صالح:

- ماذا تعلمونهم؟

قال صالح:

في الليل نعلمهم كما أتعلم أنا، وفي النهار يتعلمون كيفية عمل كراسي القش، ثم كراسي الخيزران، وتصنيع المناضد الخشبية البسيطة.

سأل أبو صالح:

- ومن سيعلمهم؟

قال صالح:

- سوف نأتي.. عفواً... سوف يأمر معالي الوزير بجلب من يعلّمهم هذا، أما أنا العبد الفقير، فسوف أعلّمهم القراءة والكتابة على طريقة برايل.. كما أكتب الآن وأقرأ.

سكت صالح لحظة، ثم قال:

- ما رأيكم يامعالي الوزير، ويا عمي الحاج، أن نستدعي إمام المسجد؟ فهو عامل متواضع، وذو عقل راجح، ويمكننا أن نستفيد من رأيه وخبرته.

قال الوزير:

- استدعه، فأربعة عقول خير من ثلاثة.

نهض صالح، ووقف في الباب، ونادى أخاه الصغير:

- أحمد.. يا أحمد..

- نعم يا شيخ صالح.

- اذهب، بسرعة إلى الإمام، وادعه إلينا.

- حاضر.

أطلق أحمد ساقيه للريح، متوجّهاً إلى بيت الإمام، وعاد صالح إلى مجلسه بتؤدة وهدوء.

تنحنح الحاج فاتح الذي كان يجلس باحترام أمام الوزير، ثم قال:

- لي طلب صغير عندكم يا معالي الوزير.

قال الوزير:

- تفضّلْ يا حاج فاتح.

قال الحاج فاتح:

- أرجو أن نتقاسم الأجر.

سأل الوزير:

- كيف؟ بل ماذا تعني باقتسام الأجر؟

قال الحاج فاتح بشيء من الجرأة الممزوجة بالحياء:

- أنا أشتري الأرض، وأقيم عليها البناء.. لمدرسة، ولورشة الأكفّاء، ومعاليكم تؤثثون المدرسة والورشة حسب الأصول وتؤمنون المعلمين، والشيخ صالح يتعاون مع الإمام لإنجاح هذا المشروع الحيوي العظيم.

قال أبو صالح:

- وأنا طلعت من المولد بلا حمص.

ابتسم الجميع لهذه النكتة، ثم قال الحاج فاتح:

- أنت، يا أبا صالح، سوف ترعى الجميع، وتؤمن لهم طلباتهم.. اتفقنا؟

قال أبو صالح في تنهّد:

- اتفقنا .. فالعين بصيرة، واليد قصيرة، وليتني أستطيع أن أقدّم كما تنوون أن تقدّموا.

قال الوزير:

- ما دمت ذكرت النية، فنيّة المرء خير من عمله، وما دمت تنوي أن تقدّم بحقّ ولا تستطيع، فكأنك قدّمت.

وقال الحاج فاتح:

- هل تظن - يا أبا صالح - أنّ عملك الذي ستنهض به أقلّ من أعمالنا؟

قال أبو صالح:

- سوف أكون خادماً أميناً لهذا المشروع، وأرجو أن يأجرني الله عليه.

التفت الحاج فاتح إلى الوزير وسأل:

- هل اتفقنا يا معالي الوزير؟

قال الوزير:

- ولكـن هذا مرهق لك.. فقيمة الأرض، وبناء المدرسة والورشة ستكون عليك عالية.. مكلفة

قال الحاج فاتح:

- تبقـى رواتب الإمـام، وأبي صالح، والشيـخ صالح، ومصروفات أخرى.

قال أبو صالح:

- أنـا وولـدي صالـح لا نريد أجـراً على عملنـا.. أجرنا على الله تعالي. أما الإمام..

وقبـل أن يكمـل أبو صالح كلامه، قاطعه صـوت الإمام الذي وقف بالباب:

- فأجـره علـى الله يا أبا صالـح، أليس كذلك ياسـادة؟ هذا بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حـاول الجالسون القيام لتحية الإمـام، ولكنّ الإمام أقسم ألا يقوم أحد، وأسرع إليهم، وصافحهم واحداً بعد الآخر، ثم قال:

- الغداء عندنا اليوم إن شاء الله.

قال الوزير:

- الغداء جاهز في المزرعة، وسوف ننتقل إليها بعد صلاة الجمعة، لنتغدى، ونضع الخطوات العملية لمشروع الشيخ صالح.

نظر الإمام إلى صالح في فرح، وقال:

- هل هو مشروعك الذي حدثتني عنه في السنة الماضية، ياشيخ صالح؟

أجاب صالح بفرح:

- أجل يا شيخ محمد.. أجل.. عرضته على الوزير فوافق، ولما علم به عمي الحاج فاتح فرح به، ودعا الله أن يوفقه للمساهمة فيه.

قال الإمام:

«يقول الناس المبصرون: العين بصيرة، واليد قصيرة... أمّا أنا، فلا عين ولا يد».

قال الوزير:

لا يا شيخ صالح.. فقد عوضك الله عنهما، فبصيرتك يقظة، متوهّجة، وقلبك وعقلك يهديانك إلى فعل الخير.. الخير لأهل قريتك، وللناس جميعاً.

قال صالح في حياء وابتهال، وقد رفع وجهه إلى السماء:

- الحمد لله الذي هيأكم لتنفيذ هذا المشروع يا معالي الوزير، وياعمي الحاج فاتح.. وأرجو من الله الوهاب، أن يهبكم ما تستطيعون به خدمة الناس، والتخفيف من آلام المعذبين.

قال الإمام:

- كان الشيخ صالح يقول: بعد أن يشرح لي مشروعه:

«يـا شيخ محمـد.. أنا أعمى، ولا أدرك، ولا أعـرف الألوان، ولكن أعـرف أن الورد جميل المنظـر عندكم، ومحبب لكم، وهذا المشروع هـو الحلمٍ الوردي الـذي أحلم به، وسوف أسعى إلـى تنفيذه، عندما أكون قادراً على تحقيقه».

قال أبو صالح هو يستعبر:

- الحمـد لله الـذي رزقنـي هـذا الشاب الـذي يفكـر بالفقراء و المساكين، وينسى نفسه.. يفكّر بأمه وأبيه وأخيه وأخواته، وبجيرانه وزملائه وأقربائه، ويقدّم لهم القليل الذي في يده أو في جيبه، ويحرم نفسه ما يحبّ.

نظر الإمام في ساعته، ثم قال:

- كاد المؤذن يضع كفّه على أذنه.

سأل الشيخ صالح:

- ما موضوع خطبتك اليوم يا شيخ محمد؟

فصاح الشيخ محمد بعفوية:

وجدتُهـا.. الشيـخ صالـح يخطـب خطبـة الجمعة اليـوم، ويكون مشروعه موضوع الخطبة، ما رأيكم دام فضلكم؟

أمّـن الجميع وأثنوا على هـذا الاقتراح، ثم هبّ الإمام فهبوا معه، وانطلقـوا إلـى المسجـد الذي لا يبعـد عنهم إلا بضـع عشرات من الخطوات.

بعد صلاة الجمعة، أقبل الناس على شيخهم الشاب صالح يهنئونه علـى فصاحته، وعلى مشروعه معاً، وأبـدى بعض الموسرين رغبتهم فـي المشاركـة بهذا المشـروع الممتـاز، كما أبدى بعضـ الفلاحين والعمال استعدادهم للمشاركة الطوعية في العمل والبناء.

وفيمـا هم أمام بـاب المسجد، أقبل عليهم فتى فـي عمر صالح، وسلّم عليهم، ثم قال:

- أرسلتني أمّي لأبلّغكم أنها تتبرع لمشروع الشيخ صالح بأيّ قطعة أرض تختارونها لإقامة المشـروع عليها ..عندكم الساحة القريبة من بيتكـم يا شيخ صالـح، وعندكم أرض الحاكورة غربي القرية، وعندكم هذه الأرض التي تقفون عليها ... اختاروا أيها شئتم، حتى تتنازل لكم عنها.

نظر الحاضرون بعضهم في وجوه بعض، ثم قال الشيخ صالح:

- بـارك الله فيـك ياعليّ وبارك فـي مالك، وسـوف نبلّغكم قرار اللجنة المشكلة برئاسة معالي الوزير.

وقال أبو معن، أحد وجهاء القرية:

- ما رأيكم، ياجماعة، أن تتكرموا وتتفضلوا إلى دارنا، لنناقش هذا الأمر؟

وثنى وجيه آخر على رأي أبي معن، وقال:

-لا بدّ من جلسة مطوّلة.. فحتى هذا المشروع المهم، لا بدّ من أن تكون له أوقاف، وأول وقف منّي، هو طلعة الزيتون تلك.

وقال آخر:

- وثانـي وقف مني.. أرض السماقات.. إنها عشـرة دونمات من أطيب أراضي القرية.

قال الوزير المأخوذ بما يجري في هذه القرية الفقيرة:

- اسمعـوا ياجماعة.. أنتـم جميعاً مدعوون عندي على الغداء في المزرعـة، معنا سيارتان تتسعان لعشـرة أشخاص.. والمزرعة قريبة

وإذا لـم تتسـع السيارتان، فسوف تعودان لتحملا مـن شاء أن يتكرم علينا، ويكرمنا بالغداء معنا، ومشاركتنا الرأي في هذا المشروع الذي سيُحيي موات هذه القرية، ويبث فيها الحياة والحركة، لتسابق المدينة والبلدة، وليس القرى.. هيّا بنا إلى السيارة.

وفـي المزرعـة دبّ النشـاط، وفيمـا كان العاملون فيهـا يذبحون الدجـاج، ويطبخـون، كان أصحاب المشـروع يناقشونه مع ثلاثة من وجهاء القرية، وقد انتهى الحوار إلى تسميته (مركز الأبرار) وتشكيل لجنة من أبناء القرية لمتابعة المشروع، يتابع كل واحد منهم جانباً منه.

قال الوزير:

- الإمام مسؤول عن أوقاف المشروع، واكتتاب التلاميذ.

والحاج مصطفى مسؤول عن تأمين العمال والبنائين.

وأبو معن أمين للصندوق.

وأبو صالح لتأمين ما يحتاجه المشروع

وأنا خادم الجميع.

فانبرى الشيخ محمد يقول:

- ومعالي الوزير هو المرجع لنا جميعاً.

أعطى الوزير أرقام هواتفه لهم، ليتصلوا به عند الحاجة، من أجل تيسير الأمور.

وتعهّـد الحاج فاتح بجمـع تبرعات سخيّة من زملائه التجار، وقد وقـف للمشـروع كرم عنـب وتين وزيتون وقـدّم مبلغاً كبيـراً من أجل الشروع بالعمل.

انتبه الوزير إلى سكوت صالح، فنظر إليه، وإذا دموعه تغسل خديه، وتندي الشعرات التي نبتت طرية ناعمة على خديه و ذقنه التي خلق الله في وسطها غمازة حلوة.. فسأله الوزير عمّا به، عمّا يبكيه، فأجابه الإمام بصوت باك، وهو يضمّ صالحاً إليه:

- إنها دموع الفرح يا مولاي.. الشيخ صالح يعيش أسعد لحظات عمره الآن، وهو يرى بعيني عقله وقلبه، ويسمع بآذانه هذه البدايات الطيبة، وهذا التوفيق الرباني بارك الله فيكم.

حاول صالح كتم فرحه، ولكنه لم يستطع، فقد انفجر في نشيج كالنشيد، وجسمه يختلج مع دفقات عاطفته الجياشة، خالطه تهليل وتكبير وتسبيح من الحاضرين، حتى هدأ الشيخ صالح، فهدؤوا معه.

في هذه اللحظات كان السائق يقف ذاهلاً مما يرى، وحائراً فيما يفعل، فلما هدأ الناس، وصفا الجوّ حتى غدا شفافاً كسحابة من عبير، قال:

- الطعام جاهز يا معالي الوزير.

نهض الوزير وهو يدعوهم إلى المائدة:

- هيّا ياجماعة.. تفضل يا شيخ صالح، يا بركة..

نهض الجميع وتقدم الشيخ صالح على استحياء، وهو يقول:

- الامتثال خير من الأدب، الامتثال خير من الأدب.

ولحق به الآخرون، إلى حيث المائدة العامرة بأطايب الطعام، تحت دالية ظليلة، تدلت عناقيدها كالقناديل، تحف بها أوراق ناضرة، إلى الجمع المبارك ناظرة، كأنما ترحّب بهم وبما يحملون من قلوب كبيرة، وعقول نيرة، يحدوهم الأمل في رفع سوية القرية

والقرى المجاورة، بانتشال أبنائها من وهدات الجهل والفقر والأمراض الحسيّة والمعنوية.

تابع الحاضرون حوارهم على المائدة، قال الحاج فاتح:

- بعد كل الذي سمعته يا شيخ صالح، هل تستطيع أن تصف لنا بناء مركز الأبرار، ليهتدي المهندس المعماري في تصميمه؟

ابتسم صالح ابتسامة عريضة وقال:

- كما تروني أراه.. بناء من ثلاثة أدوار.. الدور السفلي للمؤونة والخدمات كافة.. مستودع كبير، مقسم إلى أقسام، قسم كبير للمدرسة وحاجات التلاميذ، وقسم لورشة المكفوفين.

- هل ستكون الورشة مع المدرسة؟

- لا .. أعني لما تتطلبه الورشة من دف، وقش، وقطع غيار، ومسامير، وغراء، وما سوى ذلك. أما الورشة، فستكون ملحقة بالبناء.. خارج البناء، ومصممة بشكل لايؤثر على التلاميذ أثناء الدروس.

- عظيم .. ثم ماذا؟

قال الشيخ صالح.

- وستكون الحمامات في الدور السفلي، ومصممة بشكل لايؤذي الطلاب بالروائح وسواها.. للاستحمام، والوضوء، والخلاء.

- جيد.

- وفي الدور الأرضي تكون الصفوف، والإدارة، وغرفة المعلمين.

قال الحاج فاتح الذي رفع رأسه، وتوقف عن الكتابة.

- نعم يا شيخ صالح..

سأل الشيخ صالح، وقد أحس بأن الحاج فاتحاً يكتب:

- هل تكتب ما أقول ياعمي الحاج؟

- طبعاً أكتبه.. وإلا.. فكيف أنقله إلى المكتب الهندسي؟

قال الشيخ صالح في حياء:

- عفواً يا عمي.. أنا أتكلم بناء على أمرك، وإلا.. فمن أكون إلى جانب المهندسين؟

قال الوزير:

- تابع يا ولدي، فأنت تصمم بعقلك وبصيرتك.

فتابع الشيخ صالح:

- وهذه الصفوف تستخدم في النهار للتلاميذ الصغار، وفي الليل للأميين الكبار، وللمكفوفين الذين يعملون في النهار، وعندما آتي أيام العطل، ويومي الخميس والجمعة، أعلّمهم طريقة برايل إن شاء الله.

قال الجميع:

- إن شاء الله.

وقال الوزير:

- يبدو أننا تآمرنا عليك يا شيخ صالح، فنحن نأكل ونستمع ونستمتع، وأنت تتكلم ولا تأكل.

قال صالح:

- والله إن طعامكم شفاء للأجسام، يا معالي الوزير، ولكن اهتمامكم بمركز الأبرار غذاء وشفاء للروح.. وأنا أقدّم غذاء العقل والنفس والروح على غذاء الأجسام.

قال الحاج فاتح:

- بارك الله فيك يا ولدي يا شيخ صالح.. والدور العلوي .. ماذا تفعل به؟

قال صالح:

- ينام فيه التلاميذ الغرباء القادمون من القرى البعيدة، والتلاميذ الفقراء من أهل قريتنا والقرى القريبة، الذين لايجدون الغذاء، والكهرباء، والماء النظيف الذي سيجدونه هنا في البئر الإرتوازية التي سوف نحفرها بمشيئة الله، ثم بجهودكم المبرورة.

قال الحاج فاتح:

- إذن نحتاج إلى مطبخ ومطعم.

قال صالح:

- هذا صحيح وسيكونان داخل السور المحيط بالمركز، منفصلين عن البناء الرئيس.

هتف بعض الحاضرين وهم على المائدة يأكلون ويسمعون:

- الله أكبر.. الله أكبر.

وقال الإمام الشيخ محمد:

- من أنبأك هذا ياشيخ صالح؟

أجاب صالح على الفور:

- نبأني العليم الخبير.

قال الإمام:

- صـــدق الله العظيم الذي أعطاك هــذا الفهم وهذا الذكاء وهذا العلم يا شيخ صالح.

فقال أبو صالح:

- عندمــا ولد صالح أعمى، بكينا أنــا وأمه، لما يمكن أن يلقاه في حياتــه، ولكننا كنــا نلحظ عليه حركات تختلف عــن حركات الأطفال الآخرين.. كان ينتبه لكل حركة مهما كانت صغيرة كان يستوعب أكثر من إخوته المبصرين، ظهرت أسنانه وهو في الشهر الخامس، ومشى وهو في الشهر السابع، وكانت أمه ترقيه.. تقرأ الفاتحة والمعوذتين وتنفــخ عليه، وتدعو لــه أن يمنعه الله من الحســد والحاسدين، ومن النفاثات في العقــد، ومن أصحاب العيون الصائبة، وفي الليل، كانت تقــوم لله وتصلي وتدعو له بقلب محــروق.. ولكن الله عوضنا بفهمه وذكائه وذوقه عن عينيه.

والتقط أبو صالح دمعة فرت من عينه، فقال الوزير:

- احمــد الله يا أبا صالح علــى ما رزقك، فوالله إنه خير من كثير من المبصرين، ولولا أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نهانا أن نمــدح أحداً بحضوره لحكيت لكم بعضــ ما سمعته من مدير المعهد الشرعي ومدرسيه.

قال الإمام:

- هل نخرجه يا مولاي؟

فضحك الجميع، وقال صالح:

- تريد أن تحرمني من هذه الطيبات يا إمام مسجد الطيبة؟

قال الإمام:

- نعم .. حتى لا يحرمنا معالي الوزير من حكاياتك اللطيفة ياشيخ صالح.

عندها تحرك فؤاد الذي كان يجلس بجانب الشيخ صالح، يأكل ولا يتكلم ولا يشارك في الحوار، تأدباً مع الكبار، كما كان يفعل صالح.. تنحنح فؤاد وقال:

- هل تسمحون لي ياسادة أن أتكلم؟

فرحب الجميع به، ودعوه إلى الكلام، فقال:

- كنت في منتهى السعادة وأنا أستمع إليكم.. والله إني لسعيد بإطرائكم صديقي الشيخ صالح.. أنا زميله في الصف، ولكن خامل الذكر.

قاطعه صالح:

لا يا شيخ فؤاد.. لست كذلك.

ضحك فؤاد وقال:

- هذه أول مرة أسمع من يناديني: الشيخ فؤاد، أليس كذلك ياشيخ صالح؟

وعندما لم يجب الشيخ صالح، تابع فؤاد:

- قــل: بلى يا صديقي فــؤاد، فشتان ما بيني وبينك.. أنا - الشيخ صالح - الأول في الصف الذي أكون فيه، وأنت - يا فؤاد - وزملاؤك تأتون بعدي بكثير.

حاول صالح مقاطعة فؤاد، فقال فؤاد:

- ليســ مــن عادتك، يا صديقــي، مقاطعة أحد.. هــذا ذوق رفيع تعلمناه منك.

- أستغفر الله.

- فلماذا تقاطعني الآن، وأنا لم أقاطعك طوال هذا اليوم؟

قال صالح في حياء شديد:

- بــل منك، يــا صديقي فؤاد، تعلمت الكثيــر.. تعلمت منك الذوق في الــكلام، وفي معاشرة الأنام، وتعلمت الذوق في الجلوس والقيام، وتعلمــت منك الذوق فــي الشراب والطعام، وتعلمــت الذوق منك في أناقة الهندام.. فهل تنكر هذا يا فؤاد؟

سكت فؤاد مُحْرجاً، فتابع صالح:

- صحيح أنا متفوق على زملائي في الدراسة، ولكنهم، أو بالأحرى، لكن بعضهم، و فؤاد من هذا البعض، خير منّي في كثير من المزايا.

وعندما أحس صالح أن فؤاد قد يقاطعه قال له:

- أرجــو ألاّ تقاطعنــي يا صديقــي.. فمنك تعلمــت الكرم.. ومنك تعلمــت الإيثار، ومنك تعلمــت الشجاعة الأدبية.. فأنت الجريء وأنت الشجاع.. وسوف أذكر حادثة واحدة لتقيسوا عليها..

قال الحاج فاتح:

- نعـم يـا ولدي يا شيخ صالح.. تكلّمْ.. فأنـا أحبُّ أن أعرف شيئاً عـن ولـدي فؤاد الذي يلـزم الصمت، ولا يحدثنا بمـا يجري معه في المعهد.

قال صالح:

- على أن تستمروا في الطعام.. كلوا عنكم وعني، فوالله ما شممت روائح ذكية كهذه التي تنطلق من هذه المائدة.

سأل الوزير:

- وأنت يا شيخ صالح.. متى تأكل؟

- بعد أن أفرغ من رواية هذه الحادثة إن شاء الله.

قال فؤاد:

- ألا يمكن إرجاؤها يا شيخ صالح؟ أرجوك.

قال صالح:

- بل أنا أرجو منك أن تدعني وشأني، حتى أخفف عن نفسي بعض ما أثقلتموها به اليوم.

قال الإمام:

- تفضل ياشيخ صالح، وأوجز، فقد برد الطعام أو كاد.

قال صالح:

كما تحبّون..

فقال فؤاد في انفعال:

- إذن.. دعوني أخرج إلى الهواء الطلق، خارج هذه المزرعة.

قال صالح:

- لا يا صديقي.. لا أحبّ إحراجك ولا إخراجك.. سألزم الصمت، وأتناول طعامي، قبل أن يبرد، كما قال شيخي الإمام.

قال الإمام:

- نترك الشيخ صالحاً ليأكل، ونحن نتابع حديثنا عن مركز الأبرار.

وهكذا أنقذ الشيخ محمد الموقف، فامتدت يد الشيخ صالح إلى الطعام، وكان صديقه فؤاد يساعده في تقديم ما يحب منه في حب وذوق، فيما كان الآخرون يتحاورون في الخطوات العملية للمشروع.

الفصل الخامس

دارت الأيام، والعمل في مركز الأبرار على قدم وساق، فقد كثرت التبرعات له من التجار، ومن نسائهم اللواتي قدّمن الكثير من حليهن ومدخراتهن له، ومن أسرة الوزير، وأسرة الحاج فاتح، والأسر التي تمكن أعضاء اللجنة من الاتصال بها.

وكان صالح يغدو ويروح إلى القرية، ويحث على العمل والإنجاز بإتقان، ويكرر على مسامعهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

حتى خشي على دراسته، فقد كان في الصف النهائى للمرحلة الثانوية، ولكنه تخطى الامتحان بتفوق، وقرر أن ينتسب إلى كلية الشريعة.

وبهذه المناسبة، زاره الوزير في المعهد الشرعي، وقدّم له هدية كان اشتراها من باريس، هي (العصا البيضاء) التي تعمل بأشعة الليزر التي تصدر عنها، لتنبه الكفيف إلى العوائق والعقبات التي قد تعترض طريقه، بإصدار أصوات من مكبر صوت مثبت على العصا نفسها.

فرح الشيخ صالح بهذه الهدية القيمة التي جعلته يتحرك وينتقل بأمان واطمئنان.. شكر الوزير على هديته في تأثر وانفعال، وقال له:

- سأسافر اليوم إلى قريتي، ليطمئنوا عليّ، ما دام قد هيأ الله لي من يرعاني ويكرمني، وليروا فضل الله عليّ، في هذه العصا التي ستكون كالعينين لي.

قال الوزير في تأثر بالغ:

- السيارة في انتظارك يا شيخ صالح لتنقلك إلى قريتك، ليفرح

بـك أهلك ومحبـوك، ويطمئنوا عليك، ولتطمئن علـى سيرورة العمل في مركز الأبرار.

قال صالح:

- سوف أسافر بالباص، إذا سمحت لي يا معالي الوزير، فقد أرهقتكم.

فقال المدير:

- والله إنـي لأعجـب مـن أريحيتك وكرمك يا معالـي الوزير، كما أعجب من ذوق الشيخ صالح الذي يحبّكم كما يحب أباه وأمه.

قال الوزير:

- هيا يا شيخ صالح.. اسبقني إلى السيارة.

نهض صالـح، وسـار نحو بـاب الإدارة، وخـرج منه إلـى الباحة، فإلـى البـاب الخارجي، مستخدماً العصا البيضـاء، والوزير والمدير والطـلاب يلاحقونه بأنظارهم، ويدعون لهـذا الوزير الشهم الذي لم يسمعـوا بمثل كرمـه ومروءته إلا فيما قرؤوه في كتب التاريخ وتراجم الصالحين من الولاة والوزراء في العهود الماضية، وما أقلهم.

ركـب الوزيـر، وأراد صالـح أن يركـب بجانـب السائـق، فقال له الوزير:

- بل تركب إلى جانبي يا ولدي.. أم أنك لا تريد أن تتحدث معي؟

- أسـرع صالـح إلى المقعـد الخلفي، وركب بجانـب الوزير، وهو يقول:

- والله يا عمي.. عفواً يا معالي الوزير.

فقاطعه الوزير قائلاً:

- ابقَ على الأولى يا شيخ صالح.. فأنا عمُّك .. أرجو أن تقبلني عمّاً لك.

قال صالح في إعجاب وتأثر بالغين:

- اللّه اللّه.. لقد قالوا: رب أخ لك لم تلده أمك، ونسوا أن يقولوا: وربّ عمّ لك لم تلده جدتك..

وأنا أتشرف بهذا يا معالي الوزير.

بل قل: ياعمي.

فقال صالح في انفعال:

- ياعمّي الرائع.. يا عمّي النبيل الكريم.. يا صاحب الخلق العظيم.

سأل السائق:

- إلى أين يا معالي الوزير؟

- إلى الطيبة.. إلى بيت الشيخ صالح.

انطلقت السيارة، وانطلق لسان صالح يدعو لهذا الرجل الشهم الذي ساقه اللّه إليه، ليكون عوناً له على متاعب الحياة... ثم انطلق يحلم بالجامعة التي سينتسب إليها، وتخيل بناءها الكبير، وأساتذتها الكبار، والزملاء، والمحاضرات، كانت أحلام اليقظة تسيطر عليه، وكان الوزير يتأمله في صمت وحبّ.. وظهرت أحلام صالح في قسمات وجهه، وحركات يديه، ورجليه، فقطع عليه الوزير أحلامه بقوله:

- بماذا تحلم يا شيخ صالح؟ ماذا تقول في نفسك؟

قال صالح وكأنه يحدّث نفسه، لا الوزير:

- «الحمـد لله الـذي رزقني هذا العمّ الصالح الذي سوف يدخلني كليـة الشريعـة، وقـد بذل لي من حـر ماله الحلال، مـا جعلني أبدو أفضـل حـالاً من زملائي.. فأنا أسكن في بيـت مريح، وعندي مكتبة صوتيـة كبيرة، فيها أكثر ما أحتاج إليه من الأشرطة، وعندي مسجل أسجل به المحاضرات، وعندي آلة طابعة هي أحدث طراز ظهر حتى الآن.. وعندي وعندي..».

يبدو أن صالحاً انتبه لنفسه، فقال للوزير:

- هل سمعت شيئاً مني يا عمّي؟

قال الوزير الذي عرف الحالة النفسية لصالح:

هل يسمع الآخرون ما يحدث به الإنسان نفسه يا شيخ صالح؟

- لا...

- هل تسمع ما يجول في نفسي يا شيخ صالح؟

- لا.. لا أسمع.

- إذن حدثني عما يجول في نفسك، لأسمعك.

حمـد الشيـخ صالح ربه على ستره، وفـرح لأن الوزير لم يسمع ما يجـول فـي خاطره، وما يحدث به نفسه، ثم فكـر ملياً فيما ينبغي أن يقـول، فلم يجد غير كلمـات الشكر لله الرحمـن الرحيم الذي جعل الوزيـر علـى هذه الصورة التـي نتخيلها ولا نكاد نجدهـا في واقعنا المعيش، وقال:

- ها قد ظهرت القرية.

- فالتفت السائق وسأله:

- كيف عرفت هذا يا شيخ صالح؟

ثم التفت إلى الوزير وقال:

- عفواً معالي الوزير، فقد تكلمت بلا وعي.

قال الوزير:

- أجبه يا شيخ صالح.. كيف عرفت أن القرية ظهرت؟

قال صالح:

- هذه الصخرة التي تركوها في الطريق، فلم يمهّدوها ويكسروها، ولم ينأوا بالطريق عنها.. وكلما ذهبت إلى القرية أو عدت منها، رقصت بنا السيارة.

قال الوزير:

- هل أحسست بها يا أبا مصطفى؟

قال السائق:

- قليلاً.. لأنني أراها كلما ذهبت إلى المزرعة من هذا الدرب الترابي.

قال الوزير:

- أما أنا فلم أحس بها، وسوف نسعى إلى تعبيد هذا الطريق إن شاء الله.

فردّد صالح:

- إن شاء الله.

وصلت السيارة، وترجّل صالح قبل السائق، وفتح الباب للوزير وهو يقول:

- تفضل يا عمّي، فقد وصلت إلى بيتك.

ترجّل الوزير، فيما كان صالح يفتح باب الدار وينادي:

- أين أنتم يا أصحاب الدار؟ جاءكم ضيف عزيز.

ثم توجه إلى الوزير وقال:

- تفضل بالدخول يا عمي.

أشار الوزير إلى السائق أن يدخل بالهدايا أولاً، وقال للشيخ صالح:

- عنـدي موعـد يا شيخ صالح .. يجب أن أعـود فوراً، واتصل بي عندما تعود إلى المدينة.

خـرج أبو صالح مرحباً، وداعياً الوزير إلـى الدخول، فقال له ابنه صالح:

- إن عمـي الوزيـر مشغول يا أبي... عنده موعد مهم، ولهذا يجب أن يعود فوراً.

نظر أبو صالح إلى ولده باستغراب وغضب، وقال له:

- ما هذا ياصالح؟ هل ربينّاك على البخل وقلّة الذوق؟

فقال صالح في ابتسام:

- عندما يغضبون عليّ ينادونني، ياصالح.. هكذا حاف.. أسمعته يا عمّي؟

قال أبو صالح:

- قل يا معالي الوزير يا ولد ياصالح.

قال الوزير في ارتياح وابتهاج:

- نحن اتفقنا هكذا.. أن يناديني يا عمي، وأناديه يا صالح.. ولكن الآن فسخ الاتفاق.

صاح صالح:

لماذا يا عمي؟

أجاب الوزير:

- لأنك تقول: عندما يغضبون ينادونك ياصالح، وعندما يرضون، ينادونك: يا شيخ صالح وأنا لا أريد أن أغضب منك.. سوف أكون راضياً عن تصرفاتك يا ولدي صالح.

أكبّ صالح على يد الوزير يقبّلها، ويمسح بها وجهه، فيما كانت اليد الأخرى للوزير تربت على كتفي صالح وأبو صالح ينظر في انبهار لما يجري أمامه.

ودّع الوزير صالحاً وأباه، وامتطى سيارته، وعاد به السائق يسابق الريح إلى المدينة وعندما غابت السيارة عن العيون، استدار صالح نحو أبيه، وأخذ كفه بين يديه، وقبلها طويلاً وهو يقول:

- رب أخ لك لم تلده أمك ورب عم لك لم تلده جدّتُك وهذا الوزير الفاضل عمّي.. هكذا طلب مني أن أناديه.

دلف الولد إلى بيته، ولحقه ابنه صالح الذي كان ينادي أمه بصوت عالٍ على غير عادته من شدة الفرح:

- تعالــي يــا أمــي تعالى انظــري إلى هــذه العصــا السحرية التي عوضني بها الله عن عيني.

فرحــت الأم وانطلقــت منهــا زغــرودة، فنهاها ابنها فــي رفق عن الزغاريــد، ثم شــرح لأهله عمل هذه العصا البيضاء التي اشتراها له عمُّه الوزير من باريس، ليقدّمها هدية بمناسبة دخوله الجامعة، حتى تعينه في الذهاب والإياب.

عندما استقر المجلس بأهل البيت، قالت الأمّ في استغراب:

- هل من المعقول أن يكون معالي الوزير قد حطَّ عينه عليك يا ولدي؟

- ماذا تعنين يا أمي؟

- أعني .. هل يمكن أن يزوجك ابنته أروى؟

قال أبو صالح:

- كوني عاقلة يا امرأة.. أين نحن من مقام الوزير؟

قالت الأم:

- إذن.. لماذا كل هذا الاهتمام بصالح؟

قال أبو صالح:

- لأن الوزيــر أصيل، وابن أصلاء.. كريم وابن كرماء.. رآنا فقراء، ورأى ابننا أعمى، فألقى الله في قلبه الحنان تجاهنا والعطف علينا.

قال صالح في انكسار:

- هل ما يقدمه لنا من قبيل العطف والصدقة علينا يا أبي؟

قال أبو صالح:

- إذن.. بماذا تفسره أنت يا ولدي؟

قالت أم صالح:

- ابنــي صالــح شيخ قدّ الدنيــا.. صحيح أنه كفيــف، ولكنه ذكي، فهيــم، عاقــل، ثم إنه شاب جميل.. ليس في شباب القرية من هو في مثل جماله، لولا عيناه يا عيني.

وانخرطت في البكاء، فهدأ صالح من روع أمه، وقبل رأسها ويديها، ثم قال:

- الوزير رجل عظيم يا أمي وقد أحبنا من قلبه، وما أظنه يفعل ما يفعــل لنا ولأهل القرية ولكل من يعرفه مــن قبيل العطف والشفقة.. هــو هكذا، يحبّ الخيــر ويفعله.. متواضع، حتــى إن الذي يلقاه لأول مرة لا يظنه وزيراً.

قالت الأم وهي تمسح خدّيها:

- يعني.. هل سمعك .. هل عرّض بتزويجك ابنته أروى؟

فَصَاحَ أبو صالح:

- اتقــي الله يا امرأة، ولا تتحدثي بأعراض الناس.. حرام.. حرام والله أن نجازي ذلك الرجل الطيب بمثل هذا الكلام غير الطيب.

قالت أم صالح:

- ابني، وإن كان أعمى، خير من بنته ومن بنات كل الوزراء.. فهمت؟

صَاحَ أبو صالح:

- فهمت .. بقي أن تفهمي أنت يا أم بدر الدّجى.

فصاحت أمّ صالح:

- ابنــي مثل البدر.. انظر إلى وجهه.. انظر إلى قامته.. انظر إلى حديثــه.. انظر إلى ثيابه.. انظر إلى دراسته.. سوف يدخل الجامعة، وسوف يكون أحسن من كل الطلاب.. وسوف ترى.. فهمت؟

قال أبو صالح وهو يكظم غيظه:

- فهمت ..فهمت... حفظ الله لنا أولادنا جميعاً، وحفظ للناس أولادهم..

تناهى إلى مسامعهم أذان المغرب، فنهض صالح وهو يقول:

- هيّا يا أبي إلى المسجد.

قال أبو صالح:

- اسبقني ياولدي، فسوف أجدّد وضوئي.

انطلــق صالح نحو المسجد، وبيده العصا البيضاء، كان يسلّم على مــن يلقاه، وكان مــن يلقاه يرحب به، ويدعو لــه، ويبدي إعجابه بهذا الفتى الأعمى العينين، البصير القلب، الذي فتح الله له أبواب رحمته، عندمــا عرفه إلى ذلــك الوزير النبيل، وهو - بالتالي - لم ينس أصله وأهــل قريته، لم ينس عَمَاه وفقره وبؤسه، فكان مثال الشباب المسلم الذي يحب لغيره ما يحب لنفسه وزيادة، حسب تعبير أحدهم.

أمّــا صالــح، فقد وقــف بين يــدي ربّه، ورفــع كفيه إلــى السماء، وابتهل:

«ربِّ أوزعنــي أن أشكر نعمتــك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ، وأن أعمل صالحاً ترضاه».

«اللهم أحسن وقوفي بين يديك، ودلني بك عليك..».

بعد انتهاء الصلاة، جلس صالح مع شيخه إمام المسجد الذي قرأ الحزن في وجه صالح، فسأله عمّا به، وهل يشكو من شيء؟ فهزّ صالح رأسه نافياً. قال الإمام:

- هل تخبّئ على أخيك يا صالح؟ أم نسيت أني أعرفك كما أعرف نفسي؟ ما بك يا صديقي؟ تكلّم، وأخرج ما بنفسك إلى النور..إلى الهواء الطلق لتستريح.. تكلّم ياصالح.. تكلّم.

فاضت أحزان صالح، وانهمرت الدموع على خدّيه، فضمّه الإمام إليه، وهدّأ من روعه، ثم قال في حنان باكٍ:

- ما بك يا ولدي؟ لقد قطعت قلبي.. ما رأيتك قبل اليوم في مثل هذا الحزن.. ووساوس الشيطان بدأت تعصف في نفسي.. هل جرى للوزير مكروه لا سمح الله؟

نفى صالح ذلك بتحريك رأسه يميناً وشمالاً.

- هل أصاب الحاج فاتحاً شيء؟

- ...

- هل تراجع أحد عن المشروع؟

- ...

- إذن ماذا يا صالح؟ ماذا في الأمر يا ولدي.. تكلّم قبل أن أفقد أعصابي.

قال صالح في حزن:

- ما رأيك بالوزير يا شيخ محمد؟

قال الإمام:

- إنسان نبيل، ما عرفت مثله فيمن عرفت من الرجال عامّةً، وأهل الحكم خاصة.

سأل صالح:

- ما رأيك في عواطفه تجاهي؟

- ماذا تعني؟

- أعنــي.. هــل هي عواطف صــدق ومحبّة، أم أنهــا مجرد عطف وشفقة على فتى بائس أعمى؟

أمسك الإمام يد صالح بكلتا يديه في انفعال، وقال:

- اعذرني يا ولدي، إذا سمعت منّي كلمة تؤذي مشاعرك.

قال صالح:

- تكلم يا شيخي وصديقي وأخي، ولا تتحرج من استخدام أي كلمة أو معنى، فنحن شيخ وتلميذه، ولكنهما صديقان.

قال الإمام:

- والله يــا ولــدي، لو رأيت معالــي الوزير النبيل وهــو ينظر إليك ويتأملــك، لعرفت أنهــا نظرات الحبّ والإعجــاب.. نظرات أب نحو ولده.. فلا تترك لوساوس الشيطان سبيلاً إلى عقلك.. استفت قلبك يا صالح، وسوف يفتيك بما أقول، والله شاهد على ما أقول.

انفرجــت أساريــر صالح.. رقصـ قلبه طرباً، كمــا رقصت أذناه.. أحسّ كأنه وُلدَ من جديد، فهذه الشهادة من رجل صالح، لرجل صالح تزن الدنيا كلّها بمباهجها.. دغدغت مشاعره سحابة من عبير.. لفّه شعور بهيج.. أحسّ بالمنبر يبتسم له وبالمحراب يهنئه، وبصرير باب المسجد المتواضع يضحك له، ويرحّب به..

نهض صالح، ونهض معه الشيخ محمد.. مدّ يده مودّعاً، وقبل أن ينطلق كالريح، قال له الشيخ محمد:

- ما هذه العصا التي نسيتَها يا شيخ صالح؟

التقط صالح عصاه من يد الشيخ محمد، وقال وهو يغادر المسجد:

- ادعُ لي يا شيخ محمد.. ادعُ لتلميذك وأخيك الصغير صالح، ليصرف الله عني وساوس الشيطان ويحفظني من همزاته ولمزاته.

وسمع صالح دعوات الشيخ محمد له بالحفظ والستر، وهو يمرق من باب المسجد كالسهم..

كان يطير من شدّة الفرح .. استخفّه الشوق إلى أمّه وأبيه، ليجلس معهما مطمئناً إلى موقف الوزير منه، فالشيخ محمد لايكذب ولا يخادع، وقد عرفُته منذ سنوات إنساناً مستقيماً صريحاً كحدّ السيف، يقول الحق مهما كان مُرّاً، ولو على نفسه، يجامل ولكنه لايقول إلا الصدق، وهو يحبني كما يحبّ إخوته وأولاده، ولو لاحظ شيئاً مريباً على الوزير، لحذرني منه صراحة أو تلميحاً.. فالوزير يحبني.. هكذا قال الشيخ محمد، وأنا أصدقه، وقد قال لي: استفت قلبك، وقد استفتيته، ورأيتُه مطمئناً إلى موقف الوزير، وإلى صدق عواطفه تجاهي .. ولكن .. ليس معنى هذا أن يزوجني بنته.. ثم.. أنا لا أرغب في الزواج منها، فإن كان الوزير يحبني ويريد لي الخير، فقد لاتكون أروى كذلك.. قد تسمع كلام أبيها وترضى بي زوجاً لها، ولكنها.. قد لا تكون صادقة في حبّها.. قد يكون حبّها عطفاً وشفقة على شيخ أعمى لا تلبث أن تدير له ظهرها، وتبدي أسفها.. ثم.. قد لا توافق أمُّها، فتنشب المشكلات في الأسرة، وأنا لا أرضى أن أكون سبباً في تعكير صفو تلك الأسرة الكريمة.

استقبلته أمّه في صحن الدار، وقد تهلل وجهها، وقالت:

- أهلاً بالشيخ صالح.. ابني وحبيبي..

ردّ عليها صالح في سرور ظاهر:

- أهلاً بك يا أمي.. يا حبيبتي ويا أغلى شيء في حياتي.

قالت مفتعلة التجهّم والغضب:

- اسمع ياصالح.

قال صالح:

- يا شيخ صالح أرجوك.

فضحكت وهي تقول:

- يا شيخ صالح .. أنا غيورة.. وأنت تقول: يا حبيبتي .. فهل يمكن أن تسرقك بنت الوزير مني، وتصير عندك أغلى شيء في حياتك يا ولد؟

قال صالح:

- لا بنت الوزير ولا بنات الدنيا يساوين شيئاً عندي بالنسبة إليك يا أمي، فاطمئني ياحبيبتي.

- هذا وعد يا صالح..

قال صالح:

- ووعد الحرّ دين ياشيخ صالح.. أليس كذلك يا صالح؟

وعلتْ ضحكاتهما، فناداهما أبو صالح من داخل الغرفة:

- أضحكونا معكم.. تعال يا ولدي .. تعالي يا أمّ صالح.

وقفت أمُّ صالح في الباب، وقالت في عبوس مفتعل:

- لا أحد يتقدم على أمّ صالح... لا الشيخ صالح، ولا زوجته ولا أبوه.

قال صالح في ابتسام:

- ادخلي أولاً يا أمي حتى أدخل بعدك.

وبعد أن جلسا على طراحة بجانب الباب، تابع صالح:

- لا أحد يتقدم عليك يا أمي إلا أبي... فهو وليّ أمورنا جميعاً.

قال أبو صالح:

- بارك الله فيك يا ولدي .. ولكن أمّك تمزح.

قال صالح:

- ثم.. يا أمي.. دعينا نحسم أمر زواجي من بنت الوزير.

صَاحَ أبو صالح في غضب:

- والله عال... جعلتموها حقيقة.. اتركوا هذا الهراء يا صالح ويا أمّ صالح.

أرادت أمّ صالح أن تردّ على زوجها، ولكنّ صالحاً قال:

- أرجوكم أن تعطوني فرصة لأتكلم ... دقيقة واحدة فقط.

قال أبو صالح:

- تكلم يا ولدي.

قال صالح:

-هل أنا في رأيك يا أبي عديم الضمير؟

قال أبو صالح:

- لا .. أنت صاحب ضمير حيّ ولله الحمد، ولهذا أحببتك أكثر من حبّ الوالد لولده.

قال صالح:

- وأنت يا أمي؟

- وأنا رأيي كرأي أبيك.

قال صالح:

- إذن .. كيف يخطر على بالكم، أني قد أرضى بالزواج من بنت الوزير، حتى لو وافقتم أنتم وأبوها وأمّها وهي على هذا الزواج؟

أين شرط الكفاءة بيني وبينها؟

كيف ستعيش في بيت شاب أعمى فقير بائس؟

اعترضت أم صالح على هذا الكلام، وقالت:

والله.. لا أروى ولا بنات أهل الأرض كفوءات لك يا ولدي.. أم أنك نسيت من أنت؟

قال صالح:

- لا والله ما نسيت، ولن أنسى، فأنا صالح ابن أبي صالح وأمّ صالح.. من أسرة متوسطة الحال، تعيش في قرية صغيرة.. ولهذا أنا أرفض الزواج من بنت الوزير.

صاح أبو صالح:

- ارفعوا اسم هذه البنت الطاهرة، واسم أمّها وأبيها من ألسنتكم... أرجوكم.. أعصابي متوترة، تكاد تحترق، وأنا أسمع هذا الحديث السخيف.

قال صالح:

- يبدو أنه فعلاً سخيف يا والدي، فأنا لم أفكر أصلاً بالزواج، ولن أفكر به قبل عشر سنين على الأقل.

صاحت أمُّ صالح:

- على الأقل؟ بعد عشر سنين على الأقل يا صالح؟

قال صالح:

- اهدئى يا أمي.

صاحت:

- لن أهدأ حتى تكفّ عن هذا الكلام السخيف حقاً.. قال عشر سنين قال..

قال صالح في هدوء:

- ألا تثقين بعقلي يا أمي؟

- لا.. كنت أثق بك وبعقلك قبل الآن... أمّا الآن، فلا وألف لا..

قال صالح في هدوء محاولاً إقناع أمه:

- أمام ابنك مشوار طويل يا أمي.. سأمضي في الجامعة أربع سنين

أو خمس سنين.. وإذا أعانني الله، فسوف أستكمل دراستي العليا، فأسجّل في الماجستير والدكتوراه إن شاء الله، وهذه تحتاج إلى خمس سنين أخرى.. يعني.. أحتاج إلى عشر سنين أخرى.. فأيُهما أفضل لابنك: الدراسة ونيل الشهادات العالية، أم الزواج؟

- بل الدراسة.. ولكن.. من أين يا حسرة؟

- الله كريم يا أمي..

قال أبوصالح في حبّ وابتسام ورضى:

- بارك الله فيك يا ولدي.. لقد أثلجت صدري بهذا التفكير المتزن.

- وفيك يا أبي، فأنا ابنك الذي ربيته على العقل والتخلق بمكارم الأخلاق.. الوزير بمثابة عمّي، وأرجو ألا يتخلى عني يا أبي.. أريد أن يقف المشروع على قدميه، كما أريد أن أستكمل دراستي الجامعية والعليا.

قال أبو صالح:

- قل: إن شاء الله يا ولدي.

- إن شاء الله تعالى يا أبي.

الفصل السادس

لمـع نجم الشيخ صالح في كلية الشريعة، وفي الجامعة، وضحكت له الأيام، فشد إليه الأنظار، بدماثته، وحسن تصرفه، وروحه المرحة، وبابتسـامتـه التي ما كانت تفـارق شفتيه، وبحبه الناس، وتقديم العون لمـن يطلبه، وبذكائه، ورجاحة عقلـه، وقدرته الفائقة على الاستيعاب وتفوقه على سائر أقرانه بعلمه وجدّه واجتهاده.

كان يدخـل الجامعة بأناقته التـي عُرف بها، يحمل في يده اليمنى عصـاه البيضاء لترشده إلى الطريق المأمون، وتمنعه العثرات، وبيده اليسـرى محفظة أنيقة، فيها عُدّتـه للكتابة، ومسجل صغير لتسجيل المحاضـرات والحوارات،وأحيانـاً يكـون معـه الفتـى نعمـان الذي أستأجـره ليقرأ لـه من كتب المبصـرين التي كـوّن منها مكتبة كبيرة، أكبـر من المكتبة الصوتية، ومن كتـب المكفوفين ومجلاتهم باللغتين العربية والإنكليزية.

توزعـت حيـاة صالح بيـن الجامعة والقريـة، وكانت حيـاة حافلة بالحيوية والنشاط.

فـي الجامعة كان يشارك في الأنشطـة الطلابية عامة، والثقافية خاصة، ويخوض غمار الاتحادات الطلابية، وكان دائماً الفائز الأول فـي انتخاباتهـا، والمقدم في لجانهـا الثقافية، وكان يبـذل فيها من النشاط ما كان يبهر المبصـرين.

أسـس (الرابطـة الجامعية للمكفوفيـن) وشملـت المكفوفين في الجامعـة في سائر كلياتها وأقسامها، ثم سعى لضم بعض المكفوفين من خارج الجامعة.. من المدارسٍ الثانوية والمعاهد الشرعية، ومدارس تحفيـظ القرآن، وصرف جهوداً مضنية فـي سبيل إنجاحها، وتقديم الخدمات المناسبة لمنتسبيها.. كان يقيم لهم الحفلات والمهرجانات ويأخذهـم في رحلات ترفيهية، كان يحدثهـم عن مشروعه الطموح فـي مركـز الأبرار، وهيأ لهم زيارة إلى قريته، وأطلعهم على ما تم في مشروعه، وعرّفهم إلى الأكفاء الذين باشروا العمل في ورشة لصناعة

كراسي القش، وكراسي الخيزران، كان استأجر لهم بيتاً ليعملوا فيه، ريثما يتم البناء المخصص لورشتهم ضمن مباني مركز الأبرار.

شارك صالح في مسابقة شعرية لطلبة الجامعة، وفازت قصيدته: (عينــان مطفأتــان) بالجائزة الأولــى.. ألقاها على مــدرّج الجامعة، بصوته الدافئ الهادئ حيناً، الهادر حيناً آخر. وعندما قال:

«العُمْيُ عميان القلوب، الضائعون بلا كيان

والمبصرون بنور أفئدة.. لهم هَتَفَ الزمان».

ضجــت القاعة بالهتاف والتكبير وطلب الإعادة، فكان يبدئ ويعيد الكثير من أبيات قصيدته العصماء هذه وعندما أنشد:

«والعُمْيُ عُميان البصائر في الضلالة يعمهون

بُكْم ووَقْرُ الشكّ أصماهم فهم لا يسمعون».

علت الهتافات، واشتد التكبير، وتطاولت أعناق الأكفاء، وتقاصرت قامات عميان البصائر.

وتحدثــت بعض الصحــف المحلية عن هذا المهرجــان العُكاظي، وعن شاعــر الجامعة: الشيخ صالح.. تحدثت عــن الشاعر وشعره.. عن طوله الفارع، عن وسامته، عن أناقته، عن ذوقه وهو يحسو قليلاً من الماء أثناء الإنشاد.. عن قسمات وجه.. عن نظارته السوداء التي غطــت عينيــه وما فوقهما ومــا تحتهما بقليل، وأبــدت حزنها لعجز الطــب عن ردّ البصر إلى صاحب هــذه البصيرة النافذة.. وتحدثت عن شعره.. عن ألفاظه المصطفاة من لآلئ اللغة العربية، عن جملته القرآنيــة. عــن خياله الخصب.. عــن صوره البديعــة.. عن موسيقاه الشجية.. ثم وقفت طويلاً عند إلقائه، وقالت:

«لقد بزَّ بإنشاده كلّ من عرفناه من شعراء هذا البلد الأمين.. وقد سما إنشاده بشعره حتى بلغ ذروة لا تسامى».

وهكذا صار الشيـخ صالح حديث بعض المثقفين في منتدياتهم.. وكلما تناهى إلى مسامعه إطراء المُطْرين، تطامَنَ تواضعاً لله، وشكراً لـه علـى نعمائه وآلائه، وقـد يخرُّ ساجداً لله، حامداً إيـاه، راجياً أن يديـم عليه نعمه، ويهديه سبيل الرشاد، حتى لايضلَّ أو يُضلّ، وكثيراً ماسُمع يقول في شبه بكاء:

«يا رب اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون..

ياربّ كن مع عبدك الفقير القليل العاجز صالح، فإذا تخليت عنه هلك..

ياربّ إليك المشتكى، وأنت المستعان، ولاحول ولا قوة إلا بك».

وقد تنفر دمعة أو أكثر، فيلتقطها بسبابته، حتى لايراها المبصرون، فيكون مظنة النفاق والرياء.

الفصل السابع

رن جرس هاتفه النقال، وكان على الخط معالي الوزير الذي ترك الوزارة، وتفرّغ لأعمال البرّ والخير والإحسان، ولكن صالحاً كان يصرّ على وصفه بالوزارة ويقول بصدق:

- أنت عمي تشرّف الوزارة، ولاتَتَشْرُف بالوزارة.. الوزارة هي التي تشرف بك.. ومع ذلك. يطيب لي أن أسمع صفة الوزير ملازمة لك، ولن أتخلى عن وصفك بها عندما أتحدث عنك، أو يتحدّث عنك الناس.

دعاه الوزير إلى الغداء، فاستجاب فوراً ولم يتمنّع ولم يتصنّع:

- سأكون عندكم في الساعة الثانية إن شاء الله تعالى.

- بل تبقى في بيتك، وستأتيك السيارة إن شاء الله قبيل الثانية.

- كما تريد يا عمي الوزير.

في الواحدة والنصف دُقَّ جرس الباب، فأسرع صالح نحو الباب، ولم يدر كيف سقط على الأرض، وارتطم وجهه بالجدار، فصاح:

- آخ.. آخ يا أمي آخ..

سمع الوزير صوت سقوطه وتأوهه وأنينه، فقرع الباب بشدة وهو يصيح:

- صالح.. صالح ... أين أنت يا ولدي.

سمع صالح صوت الوزير، فكتم أنينه، وتمالك أوجاعه، وزحف نحو الباب هو يصيح بصوت واهن:

- أنا هنا يا عمّي الوزير.. لحظة وأفتح الباب.

اشتـد القرع على الباب، واشتدت عزيمـة صالح، ففتح الباب، ثم سقط مغشياً عليه..

في الطريق إلى المستشفى أفاق صالح من غيبوبته، فسأل:

أين أنا؟

وجاءه صوت الوزير؟

- أنت معي وأنا معك يا ولدي.. الحمدلله على سلامتك.

هل نحن ذاهبون إلى الغداء؟ آه.. آخ..

- لا يـا ولدي ..إلى المستشفى، وسـوف تتماثل للشفاء سريعاً إن شاء الله.

- قال صالح:

- لا داعي للمستشفى يا عمّي.. أحتاج إلى قليل من الراحة لا أكثر.

- ترتاح في المستشفى إن شاء الله.

- رقـد صالح في غرفة من الدرجة الأولى، فيما كان سائق الوزير يطير بسيارته إلى القرية، ليحضر أمه وأباه.

- سأل الوزير عمّا جرى، فقال صالح:

- زارنـي أمسـ بعض الزملاء، ويبدو أنهم عبثـوا بالبيت، ووضعوا بعض الأثاث في غير محلّه، وقد ارتطمت بمنضدة صغيرة وضعوها في غير مكانها، فسقطت على الأرض.

- سامحهم الله وسامحك.. فأين العصا البيضاء؟

قال صالح في حياء:

- وأنتم تصعدون الدرجات السبع، عرفت أنك قادم يا سيّدي، جائتني رائحة عطرك، فأسرعت لأفتح الباب لأعزّ الأحباب، وما كنت متوقعاً مجيئك يا عمّي.

قال الوزير:

- لم أشأ أن أخبرك بأني آت إليك، ومعي هدية فوزك في المسابقة الشعرية.. أردتها مفاجأة، وكان ما قدر الله أن يكون.

قال صالح:

- لا أدري يا عمّي لماذا لا أشعر أني صرت عبئاً عليك، ولذلك لا أكاد أجد الكلمات التي اعتاد الناس أن يجاملوا بعضهم بها.

قال الوزير في فرح ظاهر:

- هذا لأنك ولأني لسنا كسائر الناس.. أنا أقدّم لولدي، وهذا واجبي تجاه أولادي جميعاً، وأنت واحد منهم .. وأنت يا ولدي تتقبل هديتي كما يتقبّلها أولادي.

- ولكن أولادك ياعمّي، يقبّلون يدك كلما قدّمت لهم هداياك، فلماذا تمنعني من تقبيل يدك الكريمة الطاهرة كما يفعلون؟

قال الوزير:

- ألا تريد أن تعرف الهديّة أولاً؟

قال صالح:

- أقبل يدك أولاً، يا أبي، ثم أسأل عن الهدية.

ضـمّ الوزيـر صالحاً إلى صدره، قبل رأســه، فيما كان صالح يقبل يده، ويمسحها بوجهه ويغسلها بدموعه.

وكان الطبيب والممرض يقفان على رأسيهما متعجبين.

تنبّه الوزير لمجيء الطبيب، فقال له:

- اسمعْ يا حكيم.. الشيخ صالح بمثابة ولدي.. بل هو ابني أرجو أن تُعنى به كما تُعنى بأعز الناس عليّ وعليك.

هـزّ الطبيب رأسه، ثم تقدّم نحو صالـح، وأخذ يقلّبه ظهراً لبطن، ومـن يميـن لشمال، ويجسّ نبضه، ويفحص ما يقدر على فحصه فيه وهو صامت.

سأله الوزير عمّا به، فأجاب:

- الشيخ صالح كالغزال الشارد، سليم من كلّ مرض أو عيب.

قال صالح في مرح، وهو يشير إلى عينيه المطفأتين:

- وهاتان يا دكتور، أليس فيهما عيب؟

قال الوزير:

- لا يا ولدي يا صالح.. ليس العمى عيباً.. أنت لم تجلبه لنفسك.. هذا من عمل الله، وإرادة الله ومشيئته فوق كل إرادة ومشيئة.

قال صالح:

- أعرف هذا ياعمي الوزير، ولكني أريد أن أمازح الدكتور.

قال الدكتور:

- ليت للمبصرين عُشْرَ معشار ما أنت فيه يا أستاذ صالح من الثقافة والعلم والأدب.

سأله الوزير:

- هل تعرفه ياحكيم؟

قال الطبيب:

- عندما رأته الممرضة، أسرعت إليّ وقالت:

«المريض الذي مع معالي الوزير، هو الشاعر الأعمى الذي تحدّثت عنه الصحافة، وفاز في مهرجان الجامعة».

قال صالح مبتسماً:

- إذن.. الأخت الممرضة عرفتْ أني أعمى.

قال الطبيب:

- ولكنها معجبة بشعرك.

سأل الوزير:

- وأنت يا حكيم؟

قال الطبيب:

- وأنا أشدّ إعجاباً منها.

- لماذا يا حكيم؟

- لأنني.. لأنني..

قال صالح:

- لأنك يا سيّدي شاعر.

سأل الوزير:

- هل أنت شاعر يا حكيم؟

- نعمْ يا سيدي الوزير... أقول الشعر.. أعني كنت أنظم الشعر وأنا طالب في الثانوي، وأردت أن أدرس في كلية الآداب، ولكنّ أمي رغبت وأصرّت أن أدرس الطبّ، وقالتْ لي:

«يابنيَّ..أنت شابٌّ طيب، تحبٌّ الخير للناس، ولا تحبّ المال كما يحبّه غيرك من الأطباء، ولذلك يجب أن تدرس الطبّ يا ولدي، لتداوي المرضى الفقراء، ولا تأخذ منهم شيئاً».

- وهل عملت بنصيحة أمّك يا حكيم؟

- أرجو ذلك.. عملت بنصيحتها، ودرست الطبّ، وتركت الشعر، فلا أكاد أنظم الآن إلا في المناسبات.

قال صالح:

- وهذه المناسبة.. ألا تنظم فيها شعراً يا دكتور؟

سأل الدكتور:

- أي مناسبة يا صالح؟

- قال صالح في مرح وفرح:

- مناسبة تخلّ العقل.. وزير عظيم قد الدنيا، ينقل شاباً فقيراً أعمى إلى المستشفى، ويعطل أعماله، ويتخلّى عن غدائه وراحته، من أجل راحة هذا الأعمى الذي يحدّثك يا دكتور.

كان الوزيـر قـد أدار ظهره وابتعد عن سريـر صالح، ولكنّ نشيجه لفت الانتباه إليه، فقال الدكتور:

- والله .. سأنظـم فـي هـذا الموقف الإنسانـي الفريد من نوعه، قصيدة تعجبك يا صالح.

قال صالح:

- إذا أعجبتنـي، فسوف أقدّم لـك الجائزة التي نلتُها في مهرجان عكاظ.

قال الطبيب:

- لا يـا صالـح ... لن تكون قصيدتي مثـل قصيدتك.. أنت شاعر مبدع ياصالح، وأنا طبيب يهوى الشعر، ويحبّ الشعراء، ويفرح عندما يأتيـه شاعر إلـى المستشفى، لأقضي لحظات فراغـي معه، أستمع إليه، وإذا عرف أني أنظم الشعر، أسمعتُه بعض أشعاري.

قال صالح:

- هل تسمع ما يقوله الدكتور يا عمي الوزير؟

أدار الوزير وجهه إلى صالح وقال:

- يسعدني أن أرى طبيباً شاعراً.. وأرجو أن تدعوه يا ولدي، ليكون من أركان مركز الأبرار.

سـأل الدكتور عن هذا المركز، فأفاض صالح في شرح المشروع الذي يتشكل مركز الأبرار منه، فقال الطبيب:

- أرجو أن تعتبروني عضواً مؤازراً في هذا المركز.

قال الوزير:

- بل أنت عضو مؤسس، وأحد أركانه الخمسة.

فتابع صالح:

وهـم: عمّي معالي الوزير، والحـاج فاتح، وأبو معن، وإمام مسجد الطيبة، والدكتور الشاعر.

قال الوزير:

نسيت أن تذكر صالحاً وأبا صالح يا ولدي.

قال صالح:

- نسيـت أن أذكـر أبي.. فهو على الرغم مـن كونه فلاحاً بسيطاً، ولكنـه مخلص، ونشيـط، ويحبّ الخيـر للناس، ويسعـى إلى خدمة الفقراء وأصحاب العاهات من أمثالي، أمّا أنا.. فما زلت طالباً يرعاه أبواه وعمُّه الوزير، ولا يقوى على فعل الكثير الذي يتطلبه المركز.

قال الوزير:

- عهدتـك صادقـاً يـا ولـدي.. وعرفتُـك واثقاً مـن نفسك، ومن إمكاناتـك الكبيـرة، فلماذا تقـول مثل هذا الكلام أمـام عضو جديد نريـده أن يكـون فعّالاً في المركز، متعاوناً مع أركانه؟ أنا لا أرضى أن تستهين بنفسك وإمكاناتك يا ولدي.

ثم التفت إلى الطبيب وقال:

- اسمـع يا حكيم.. هذا المريض الـذي يجلس أمامك على سرير الشفـاء، هـو الركـن الأساسي فـي مركز الأبـرار.. الفكـرة فكرته، والمشـروع مشروعـه، هو المصمـم والمخطط، ونحـن منفذون، أنا

وكلّ من عدّهم لـك... نحن منفذون،وهو العقل المدّبر والمدير لهذا المشـروع الحيـوي الـذي نرجـو مـن الله أن يوفّقنا لإكمالـه بأسـرع وقت.

نقل الطبيب عينيه بين الوزير والشاب المريض، ثم قال:

- أنـا سعيد جداً بما أسمع، ولعل هذه (الوقعة) المباركة ياصالح، تجرّ خيراً كثيراً.

قال صالح في حيوية:

- أتمنى أن أقعٍ كل يوم مثل هذه الوقعة، إذا كان المشروع سيكسب عضواً عاملاً فعالاً مثلك يا دكتور.

قال الدكتور:

- صدق من قال: رُبَّ ضارّة نافعة، وسوف تفرح أمّي وزوجتي بهذا المشروع.. سوف تقدّمان له الكثير.

قال صالح:

- وأنت يا دكتور، أكبر من كل مال.. ستكون ثروة لهذا المشروع.

★★★

عندمـا خلا صالح بنفسه، وهو علـى سرير المرض، انطلق لسانه يقرأ ورده اليومي الذي اعتاد على قراءته منذ حفظ القرآن الكريم.. كان يقـرأ كل يـوم جـزءاً من القـرآن الكريم، ويدعو ببعض الأدعية المأثـورة عـن النبي صلى الله عليه وسلـم، ويصلي على النبي ماشاء الله لـه أن يصلـي.. كان يفعل هذا بعد صـلاة الفجر، ولكنه اليوم لم يستطع، فأجّل ورده إلى وقت لاحق من اليوم، ولكنه سقط سقطته التي أدخلته المستشفى، وشغله الوزير والطبيب وقد فرغ الآن لنفسه.

كان يتلو آيات الله بصوته الرخيم، وكان يتفاعل مع ما يقرأ، فيتلوّن صوتـه حسب المعنى فيرتفع حيناً، وينخفض حيناً، وهو في موضع الاستفهام، غيره في موضع التقرير أو التعجب... إنه يعي ما يتلو جيداً، ولهذا يقف عند كلمة أو آية لا يتجاوزها، حتى يفهمها ويفهم المراد منها، فإذا فهمها تابع التلاوة.

وفيما هو غارق في سبحاته الفكرية مع كتاب الله العزيز، أقتحمت أمّه الغرفة وهي تنوح وتصيح:

- أصابوك بالعين يا ولدي.. كيف وقعت يا صالح؟ أين العصا البيضاء؟ أين إحساسك بالأشياء؟ إنها العين اللاّمة يا ولدي.. حماك الله منها، وحمى أولاد المسلمين.

ناداها صالح:

- تعالي يا أمي اجلسي بجانبي.

صاحت:

- أجلس؟ أنا أجلس وأنت ممدّد على هذا السرير؟ لا لا ياصالح.. ادعُ أباك ليجلس، أما أنا، فسوف أبقى واقفة، أرقيك بكلمات الله التامات من شر ما خلق، ومن غضب الله وعقابه وشرّ عباده، ومن همزات الشياطين.. شياطين الإنس قبل شياطين الجن.. شياطين الإنس ألعن من شياطين الجن يا ولدي، وقد حذرتك منهم، ولكنك لم تستمع لكلامي.. عندك كلُّ الناس خير وبركة.. ولو كانوا، كما تقول، لما وقعت وقعتك السوداء هذه، ولما دخلت المستشفى، ورقدت على هذا السرير، بينما صاحب العين اللاّمة التي أصابتك في بيته، مع زوجته وأولاده، ولايهمهم ولدي.. لا تهمهم صحّته، ولا كسرُ رجله أو عظام ظهره.

صاح أبو صالح:

- على مهلك يا امرأة. يكفي هذا العويل وهذا النواح.. الولد بخير ولله الحمد، ولم تُكسر رجله ولا عظام ظهره.

فصاحت في نواح:

- أنـت لا تهتم بصالح. ولاتهمك صحته ولا مصلحته.. غيّر كنيتك فلن أناديك بعد الآن بأبي صالح.

- لاحـول ولا قـوة إلا بالله.. هـذه المرأة الجاهلـة تشتري الشرّ، وتشتهـي البـلاء، انظري إلى ولـدك... إنه أمامـك.. اسأليه إن كان يشكو من شيء،، اسأليه،،، إنه أمامك.

مسحت دموعها بكفّيها، ثم قالت:

- طبعاً سيكون معك، وسيقول: ما في شيء.. ابني وأعرفه.

قال صالح بهدوء:

- تعالي إلى جانبي يا أمّي الحنون..

فصاحت في زوجها:

- هل سمعت؟ أنا أمّه الحنون.. إنه يعرف الذي يحبّه ويعطف عليه ويحن إليه، مِن الذي لا يحبّه ولايحنّ عليه.

حوقل أبو صالح واسترجع، وهو يضرب كفاً بكف ثم قال:

- أنـا راض بهـذا.. اجلسي إلـى جانب ولـدك، وأعيرينا سكوتك ساعة، حتى أفهم ما جرى معه.

صاحت:

- سـاعـة يا رجـل؟ تريدنـي أن أسكت ساعة لتتحـدث أنت؟ ماذا ستقول؟ ماذا عندك حتى تقول أنت وأسكت أنا؟

- لاحول ولا قوة إلا بالله.. جُنَّت هذه المرأة.

صاحت:

- أنا مجنونة؟

- قال صالح في رجاء:

- تعالي يا أمّي حتى أحكي لك الذي صار.

- أسرعت إليه، وألقت بنفسها عليه، وقالت:

- احك لي يا ولدي احك، فقلبي مثل النار.

قال صالح لأبيه:

- تفضل واجلس يا أبي.

جرّ أبو صالح كرسي الخيزران إلى جانب السرير، وجلس وهو يقول:

- سوف تصنّع ورشتنا كراسي أفضل من هذا الكرسي بإذن الله يا صالح.

حدجته زوجته بنظرة كاللهب، وقالت:

- عقلي عند ابني، وعقله عند الكرسي... أين قلوبكم أيها الرجال؟

قال صالح في ابتسام عريض، وقد وضع ساعده على كتف أمه:

- كان يا ما كان، في حديث الزمان.. كان هنا شاب أعمى اسمه صالح، يحبّ أمه كثيراً، ويحبّ أباه أيضاً.. كان في بيته يحضّر لجامعته، يقرأ خلاصة المحاضرة التي سمعها بالأمس، فقرع جرس الباب، والشيخ صالح سارح مع المحاضرة، فهبّ قائماً وانطلق نحو الباب ليرى من الطارق، فعثرت رجله، ووقع على الأرض، ثم جاء عمه

الوزيـر، وحمله إلـى المستشفى، وجاء أعظم طبيـب في المستشفى وعاينه، فلم يجد فيه شيئاً، فحمد الله وقال له:

«ليس فيك شيء يا شيخ صالح، وبإمكانك أن تعود إلى بيتك الآن».

ولكـن معالـي الوزير أبى أن يعـود صالح إلى بيتـه، وأمر أن يبقى الشـاب الأعمـى في هـذه الغرفة المريحـة، ليستريح فيهـا يوماً أو يومين.. ألف هاء انتهى. ما رأيك يا أمي في هذه الحكاية؟

ابتسمـت الأم ابتسامـة عريضـة، ثم لفتـه بيدها القويـة الطويلة وضمته فصاح بها زوجها:

- كسرتِ عظام ابنك.. الآن يحتاج إلى الطبيب فعلاً.

نظرت إلى صالح وقالت له:

- هل صحيح ما يقوله أبوك يا صالح؟

وانخرطت في البكاء، لأنها كسرت عظام ابنها.

ضحك صالح من أعماقه وقال:

- أضحكتني يا أمي وأنا مرضان.

فصاحت:

- مرضان؟ أنت مرضان ولا تقول ما بك يا ولدي؟ هل أنادي الطبيب؟

نهض أبو صالح عن كرسيّه وهو بين الضحك والرثاء لهذا الموقف المبكـي، وخـرج من الغرفـة، وعندما صفق الباب خلفـه التفتت إلى صالح وقالت هامسة:

- تـرى هل أصـاب أباك مكـروه ياصالح؟ والله إنـي أعرفه سيّد

العارفيـن، فمـا الذي جرى لـه؟ لا بد أن عقله قـد خالطه الخرف.. وإلا.. فكيف يسمح لنفسه أن يترك ولده المريض، ويخرج؟

قال صالح:

- لا يـا أمـي .. ليس بأبـي شـيء ممـا تقوليـن.. إن عقلـه يزن الجبال.

قالت وهي تمثل بكفيها:

- كلامـك صحيـح يا ولدي.. انظر إلى رأسـه.. إنه أكبر رأس في الطيبـة، وأكبـر رأس فـي المستشفـى ورؤوس كل الأطبـاء في هذا المستشفى أصغر من رأس أبيك.

ضحك صالح وضحك، حتى خشيت عليه أمه، فصاحت به:

- مـا بك يـا ولدي؟ هل أصابك مثل ما أصاب أباك؟ هل أدعو لك الطبيب يا ولدي؟

هدّأ صالح نفسه ثم قال:

ياليـت عقلـي يكون مثل عقل أبي .. عقل أبـي كبير يا أمي.. كبير كبيـر.. ولـو أن أباه علّمه لـكان أفضل من كثير من هـؤلاء الأساتذة والأطباء.. ولكنه زوّجه مبكراً وهو ابن ست عشرة سنة.

قالت:

- وأنا كنت بنت اثنتي عشرة سنة.. أنا أصغر منه بأربع سنين.

قال صالح:

- قـال: إن أمّه تريد أن تفرح بـه، فزوّجوه، وقطعوا تعليمه، ورموه في تلك القرية القاحلة.. يا حسرة عليه.

رمته بشرر تطاير من عينيها ولسانها، ثم قالت:

- تـأدّب يا ولد... تـأدّبْ يا صالح.. فالزواج ليس عيباً، وأمك هذه كانت وما زالت أحسن بنت في الطيبة.. اسأل أصحاب العيون ليقولوا لك أبوك فاز بجوهرة.. بأجمل بنات القرية والقرى المجاورة.

هل فهمت يا ولد؟

ربت على كتفها وقال:

- كلامك صحيح يا أمي.. أنا غلطان..

قالت:

- إذن قم وناد أباك.

قال:

- كما تحبين يا أمّي.

وعندما تحرك شعر بألم شديد، فتغضّنَ وجهه، وعضّ على شفتيه، ولاحظت أمُّه ذلك، فقالت في حزن:

- أنـا ولا أنـت يا ولدي .. أنت تتألم يـا صالح. ابق في فراشك يا ولدي، وسوف أنادي أباك، ليأتيك بالطبيب.

- لايا أمي لا..لست بحاجة إلى الطبيب.

- ولكنك تتألم.

- سوف يزول الألم بسرعة إن شاء الله تعالى.

- ونِعْمَ بالله يا ولدي.

قال صالح في رجاء:

- أنا أحبك يا أمي، وأحبّ أن تدخلي أنت وأنا وأبي وأخي وأخواتي وعماتي وخالاتي الجنة.. أرجو أن نكون هناك في الجنة، كما نحن الآن هنا في هذه الدنيا.

قالت في استغراب:

- وأنا أحبّ ذلك... ولكن.. لماذا تقول هذا يا ولدي؟ هل مرضك لا سمح الله.

وانخرطت في بكاء مرير.

هدّأ صالح من روعها، ثم قال:

- ليس بي ما يدعو إلى الخوف يا أمي.. لست مريضاً والحمد لله، ولكن الأعمار بيد الله، وأنا أرجوك يا أمي أن تعاملي أبي معاملة تليق به، لتدخلي الجنة.

صاحت في استنكار:

- استغفر الله يا ولد.. يا متعلم.. يا دارس الشريعة.. أبوك سيدخلني الجنة أم الله؟

قال صالح في رجاء:

- أمر الله بطاعة الزوجة لزوجها، ونهاها عن مخالفته وعصيانه، وطاعة الله تدخل الجنة، ومعصية الله تدخل النار.

تساءلت:

- إذن ... ما دخل أبيك بالجنة والنار؟

قال صالح:

- عندما تطيعين زوجك يا أمي، تطيعين الله تعالى.

- اسكت يا ولد .. هل صار الزوج إلهاً، استغفر ربك.

أستغفـر الله العظيـم وأتـوب إليه .. طاعة الزوج يـا أمي من أمر الله... أمـر الله تعالى، وأمر رسولـه الكريم صلى الله عليه وسلم أن تطيـع المـرأة زوجها، والمرأة التي تنفّذ أمـر الله وأمر رسوله تدخل الجنـة، والمرأة التـي تعصي زوجها ولا تطيعه، هـي تعصي أمر الله وأمـر رسوله يا أمي، ولذلك أرجـوك أن تطيعي أبي فيما يرضي الله تعالى، حتى نكون كلّنا في الجنة يا أمي.

وضعت رأسها بين كفّيها وبكت، ثم رفعت رأسها وقالت:

- ادع أبـاك، وقـل له: إنّ أمـي تحبّك وتطيعك، تنفيـذاً لأمر الله ورسوله، ولكن.. على ألا يشتطّ عليّ، ويقول لي في الصباح والمساء: الرجال قوّامون على النساء.

قال صالح:

- استغفري الله يا أمي، فهذا كلام الله وليس كلام أبي.

قالت:

- أعـرف أنه كلام الله.. أنا لست بقرة.. أنا إنسانة تصلي وتصوم وتعبد الله تعالى، ولكنّ أباك يكرر هذه الآية على مسامعي كل لحظة، كأنه لم يحفظ من كلام الله سواها.

ضحك صالح وضحك حتى استلقى على قفاه، ثم نادى:

- أبي... أبي... يا أبي.

دخل أبو صالح مسرعاً نحو ابنه في لهفة وقال:

- مالك يا ولدي؟ هل تشكو شيئاً؟

قال صالح:

- اشكو إليك أمي التي لم تضحكني كما أضحكتني اليوم.

قال أبو صالح:

- الحمد لله ... يعني.. فرَدَتْ وجهها أخيراً.

قال صالح:

- وسوف تبقى دائماً باسمة لك، ضاحكة معك، لاتردّ لك طلباً، ولا تعصي لك أمراً، ولكن بشرط.

- ما هو هذا الشرط؟

فصاحت:

- ألا تكرر على مسامعي.

قاطعها صالح وقال:

- نحن نقرأ كلام الله، وننفذ أوامره، وننتهي عما ينهانا عنه في كل لحظة .. أليس كذلك يا أمي؟

قالت:

- بلــى.. ولكــن.. ما هو الشرط الذي تريد أن تشترطه على أبيك؟ ظننته..

قاطعها صالح:

- معاذ الله يا أمي.. الرجال قوامون على النساء .. هذا كلام الله، نردّده كل حين.

قال أبو صالح وهو يهز رأسه.

- فهمت .. فهمتُ الشرط.

قال صالح:

- لا يا أبي.. ليس هذا شرطاً، وليس من حقي ولا من حق أمي، ولا من حقّك أن نقبل هذا الشرط.

صاحت:

- إذن ما هو الشرط يا ولد؟

قال صالح:

- الشرط يا أبا صالح .. أن تسترضيها إذا أزعجتها أو أغضبتها، وأن تسترضيك إذا أغضبتك، وتعودَ إلى طاعتك.

قال أبو صالح:

- شرط جميل، أنا أرضى به.

وقالت أم صالح:

- معنى ذلك، أنه سوف يسترضيني كلَّ لحظة، لأنه في كل لحظة يغضبني.

قال صالح:

- لا يا أمي.. أبي أكرم من ذلك.. وقد سمعتُه وهو يقول:

«ما أكرمهن إلا كريم، وما غلبهن إلا لئيم» وأبي ليس لئيماً يا أمي.

قالت أم صالح، وقد انفرجت أساريرها:

- وأنا أشهد أن أباك كريم، ولم يكن لئيماً معي ولا مع غيري يا ولدي.

وقال أبو صالح:

- وأنا أشهد أنها صابرة على الحلوة والمرّة، ويكفيني أنها أنجبت ولداً نجيباً مثلك يا صالح.

قال صالح في حياء:

- أستغفر الله يا أبي... وإن كنت نجيباً فمنكما نجابتي يا أمّي ويا أبي التقيين الورعين.

سمعوا صوت المؤذن ينادي لصلاة المغرب، فقال صالح:

- ما رأيك يا أبي أن تذهبا إلى بيتي لتستريحا، وغداً ألقاكما إن شاء الله.

قالت أم صالح:

- ليذهب هو، أمَّا أنا، فسوف أبقى معك.

- أين؟

- هنا.. على هذا الكرسي أنام، ولن أنام وأترك ولدي مريضاً يتألم.

- ولكنني لست مريضاً يا أمي، فليس بي ألم.. وإن شئتم خرجتُ الآن معكم إلى البيت.

قال أبو صالح:

- مشكلة أمّك ياصالح، هذه العاطفة العمياء.. هيّا يا امرأة فالمغرب غريب.

قالت أم صالح:

- إذن.. ليذهب معنا صالح، ما دام ليس مريضاً ولا متألماً من شيء.

- ولكن الطبيب طلب منه أن يبقى هنا ليستريح.

- لا .. ليس الطبيب الذي طلب، وإنما هي أوامر الوزير. أليس كذلك يا صالح؟

قال صالح، وهو ينزل عن سريره:

- كلام أمي صحيح.. سأذهب معكم.

قال أبو صالح بغضب:

- لايا ولدي.. ما دامت هذه رغبة معالي الوزير.

- الوزير ليس طبيباً يأمر ويطاع.

- إنه فعل ذلك من أجل راحة ولدنا يا أمّ صالح.

- أنا أعرَفُ بمصلحة ابني وأعرف أين يستريح، ومع من.. معي أنا وليس في هذه الغرفة.

قال أبو صالح في أسف:

- حسبي الله ونعم الوكيل.. سوف يزعل معالي الوزير، والطبيب معاً.

قالت أمّ صالح:

- ليزعلوا .. مصلحة ابني فوق زعلهم.

قال أبو صالح:

- أنت أبو الذوق يا صالح.. أرى أن تستأذن الوزير والطبيب.

قال صالح:

- كلامك صحيح يا أبي.. سوف أكلّمهما بالهاتف.

قالت أم صالح:

- قل لهم: تعبت من القَعْدَةِ في المستشفى، وسوف أذهب إلى البيت مع أمّي وأبي.. وبس.

مدّ صالح يده إلى الهاتف، وإذا الهاتف يرن...رفع السماعة، وإذا الوزير على الخط.. قال له صالح:

- سبقتني يا عمي.. مددت يدي لأتصل بك، فسبق فضلُك يدي.

اطمأن الوزير على صحة صالح، وسأله عن أبويه ثم قال صالح:

- أميّ تصرّ على خروجي من المستشفى إلى البيت، وقد وافقتُها على طلبها، لأني ما عدت أشكو من شيء والحمد لله.

وتحدّث أبو صالح مع الوزير، وفهم منه أنّ ولده صالح وضعُه سليم والحمد لله، ويستطيع أن يذهب معهم إلى البيت إذا أحبوا.

قال أبو صالح:

- إذا كان الأمر كذلك، فسوف نذهب جميعاً إلى البيت الآن، لنلحق صلاة المغرب.

طلب منه الوزير أن ينتظروا لحظات، فالسيارة الآن في المستشفى لتأخذهم إلى البيت، ودعاهم إلى الغداء في بيته في اليوم التالي.. حاول أبو صالح أن يعتذر، ولكن الوزير أصرّ على ذلك.

قال أبو صالح كالمحدّث نفسه، وهو يضع سماعة الهاتف.

- ما أروع هذا الوزير! سبحانك يا ربي.. من يكون صالح، ومن يكون أبو صالح، حتى يدعوهم هذا الرجل الفاضل إلى الغداء في بيته؟

ابتهل صالح في تأثر وانفعال:

رب أوزِعْني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديّ، وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

ثم التفت إلى أبيه وقال:

- أنت لست قليلاً يا أبي، وكذلك أمي الغالية.. أنتما تستأهلان كل خير، وكل تكريم، وعمّي الوزير رجل طيب، فاضل، نبيل، بكل ما تعنيه هذه الكلمات من المعاني.

قالت أم صالح:

- أنا معكما .. هذا الوزير رجل شهم، أنت وأبوك يا صالح لا يرضى الشرطي ولا الحارس القضائي، ولا أيّ موظف مهما كان صغيراً، أن يكلمكما إلا وهو رافع أنفه، ومن طرف لسان، وبينما هذا الرجل الفاضل وزير ولا كل الوزراء.. ومع ذلك يهتم بك كلّ هذا الاهتمام يا ولدي، ويدعونا إلى مزرعته، ويرسل سيارته لجلبنا من القرية، ويدعونا إلى منزله، ويغرقنا بهداياه، ما هذا؟ هل هذا بشر؟

قال صالح في ابتسام:

- ما رأيك يا أمي.. هل يعمل هذا من قبيل العطف على ولدك الأعمى؟

فصاحت:

- استغفــر الله يا ولدي، هذا الرجل أكبر من هذا.. إنه يحبّك من أعمــاق قلبــه، وسوف يزوّجك ابنته أروى... اسألنـــي أنا.. أنا قلبي لا يكذبني وهو يتحدث معي.

قال أبو صالح في امتعاض:

- عــادت حليمة إلــى عادتها القديمــة... أرجوك يــا أمّ صالح أن تكفّي عن هذا الكلام.. وقد قال لك صالح: حتى لو رضيت هي وأمها وأبوها، فإنه لايرضى أن يتزوّجها.. فكفّي عن هذا أرجوك... نظرت إليه في عتاب وقالت:

- ســوف أكــف عن الكلام في هذا، ولكني أرجــو ألاّ تنسوا كلامي هــذا.. تذكّروه جيداً، وسوف ترون.. وسوف تقولون: قالت أمّ صالح، ولم نصدّقها.

ثم همست في أذن صالح:

- قلب الحرّ دليله يا ولدي، وأمُّك حرّةٌ بنت حُرةٍ ياصالح..

الفصل الثامن

كانت أمّ صالح تنظر إلى الأثاث في انبهار، فهي لم تدخل قصراً من قصور الكبراء قبل اليوم، ولهذا كانت مأخوذة بكل شيء في قصر الوزير، وما دخلت حجرة إلا رأتها أجمل من أختها، وكانت لا تملك لسانها من التعبير عن الإعجاب بكل ما ترى.. ولكن الذي استوقفها أكثر كراسي الخيزران تحت الدالية.. سألت السيّدة نفيسة زوجة الوزير:

- هل هذه الكراسي الجميلة من صنع العميان عندكم؟

ضحكت أروى من هذا السؤال، فحدجتها أمها بنظرة عتاب، فوضعت كفّيها على فمها، وابتعدت عن أمّها التي أجابت:

- يا أختي أمّ صالح.. هذه الكراسي يصنعها المبصرون الحاذقون، أمّا العميان فلا يستطيعون، لأن صناعتها دقيقة جداً.

- ولكنّ ابني صالح عمل ورشة في الطيبة لعميان القرية، من أجل صناعة كراسي القش، وكراسي الخيزران أيضاً.

قالت نفيسة:

- شيء حلو والله... أرجو أن يتمكنوا من صناعتها.

- العميان ياحاجة نفيسة أذكياء، ماهرون، عوّضهم الله عن عيونهم بأشياء أخرى... ولدي صالح مثلاً أعمى، ولكنه أذكى من كل أهل الطيبة، وما يعمله لايستطيع كل أهل الطيبة عمله، مثلاً حفظ القرآن وهو صبي صغير، وغيره من (المفتحين) لم يحفظوه.. حتى أبوه لم يستطع حفظ ربع القرآن الكريم.

قالت نفيسة:

- بارك الله لكم في ولدكم، فقد عرفت عنه الكثير من زوجي.

- زوجك الوزير مثلاً... هل يحفظ القرآن؟

- لا، يحفظ بعض أجزائه وبعض السور.

- ولكنه يحبّ الشيخ صالحا، ولايحسده كأولاد الطيبة.

ابتسمت نفيسة ابتسامة خفيفة، وقالت:

- زوجي يحبّ الشيخ صالحاً كما يحبّ أولاده.

قالت أمّ صالح:

- وأكثر!.

نظرت السيدة نفيسة إلى أم صالح، وقرأت البراءة في وجهها، والصدق في لهجتها، والبساطة في تصرّفاتها، فلم تستنكر كلامها، وادّعاءها بأن زوجها الوزير يحب ابنها أكثر من أولاده، بل قالت:

- سمعت منه أنه سوف يسعى ليستكمل صالح دراساته العليا، ولن يتركه يضيع لحظة من عمره، فأمامه الماجستير، والدكتوراه، بعد الليسانس.

قالت أم صالح:

- سمعت هذا الكلام من الشيخ صالح، ولكنني لن أوافق.

- لماذا؟

- يا أختي نفيسة.. متى سيتزوج؟ هل سيتزوج تلك الشهادات التي يحلم بها؟ أريد أن أرى أنا، وأبوه أيضاً، أولاده يملؤون علينا الدار بصياحهم وألعابهم.

قالت نفيسة:

- يجمع بين الأمرين.

- كيف؟

- يتزوج ويتابع دراسته.

- اعترضت أمّ صالح:

- كيف؟ المفتَّحون لايستطيعون أن يحملوا بطيختين في يد واحدة، فكيف يستطيع هو، وهو أعمى كما تعلمين؟

- نهضت نفيسة، فنهضت معها أمّ صالح وهي تقول:

- عند أبي معن بنت مثل القمر ليلة البدر. أدعو الله أن يجعلها من نصيب ابني الشيخ صالح، وإن كان - يا حسرة - لا يستطيع أن يرى جمالها وحُسنها.

فيما كانت المرأتان تسيران في حديقة القصر، كانت أمّ صالح تطري ولدها، وجماله، وتقول:

- والله لو حصل النصيب، وتزوّج ابني صالح من بنت أبي معن، ورزقهما الله أولاداً، فسوف يكونون في مثل حُسن سيّدنا يوسف.

قالت نفيسة:

- عليه الصلاة والسلام.

وتابعت أم صالح:

- ولكنّ، ياحسرة، أبو معن رجل غنّي، ونحن مستورو الحال، ولذلك، فهمتُ من أمّها أنهم لن يزوّجوها إلا لولد من أولاد الأغنياء.

- يعني .. خطبتها منها، فقالت لك هذا الكلام؟

- لا.. لم أخطبها صراحة، ولكني عندما أبديت إعجابي بها، قالت:

- «تقدم لخطبتها أكثر من عشرين شاباً، ولكنهم لم يعجبوها فرفضت أن تزوّج ابنتها من أيّ واحد منهم» فسكتُّ، ودعوتُ أن يرزقها الله ابن الحلال الذي يعجبها ويسعدها.

سحبتها السيدة نفيسة من يدها إلى أرجوحة قرب البركة، وجلست وحاولت أن تجلسها معها، فأبت، وقالت في شبه غضب:

- ما هذا يا أختي نفيسة؟ هل نحن صغيرات حتى نركب الأرجوحة؟

ابتسمت السيدة نفيسة، وجرّتها من يدها، وهي تقول:

- اجلسي يا أمّ صالح، فهذه للكبيرات مثلي ومثلك، وليست للصغيرات.

وأشارت إلى أرجوحة الصغار وقالت:

- تلك الأرجوحة للصغار.

ابتسمت أمّ صالح، فقد شعرت بارتياح، ورفع الكلفة، ثم قالت:

- عفواً ياست نفيسة،ظننتك تمزحين معي، وتريدين أن تضحكي عليّ أنت وبناتك.

قالت نفيسة في سعادة، وهي ترى طيبة القلب التي تتمتع بها هذه المرأة التي لم تعرف لها من تماثلها من النساء اللواتي تعاشرهنّ وتصادقهنّ:

- لا يا أم صالح أنت أختي، وحقّ الأخت على أختها أن تكرمها، لا أن تؤذيها.

انتفضت أمّ صالح، وحاولت أن تقفز من فوق الأرجوحة، فلم تستطع، فنظرت إلى نفيسة وقالت:

يا ويلي ويا سواد ليلي ياست نفيسة.. أنا أسخر منك؟ أنت أختي، أنا أحبّك كما أحبّ أختي الوحيدة خديجة، بل أكثر، فأنت إنسانة رائعة، لاتسبّين أحداً كأختي، ولا تتكلمين إلا بخير، فكيف لا أحبُّك؟

طمأنتها نفيسة، وقالت:

- هكذا الأخوات يا أمّ صالح.

قالت أم صالح:

- والله الذي لا إله إلا هو، ذكركم أطيب من رائحة الورد الجوري.. ولدي الشيخ صالح يذكركم دائماً وأبداً بخير، وكذلك أبو صالح، حتى غرت منكم... أنتم والله في القلب قبل أن نعرفكم، فكيف بعد أن عرفناكم، وقضينا هذه الساعة الحلوة بينكم؟

وهكذا استمرّ الحديث بين المرأتين الطيبتين، بينما كان الوزير مع صالح وأبيه، يتحدثون حول مشروع مركز الأبرار، والمراحل التي قطعوها في تنفيذه، والأموال التي جمعوها له.

تذكّر الوزير أمراً أضاء وجهه، فقال: نسيت أن أخبرك يا صالح، ويا أخي أبا صالح، بأن الدكتور قد تبرّع هو وزوجته وأطفاله تبرعات سخيّة جداً، سوف تغطّي كثيراً من النفقات، وقال لي: سوف يؤسس وحدة صحية في المركز، وسوف يشرف هو بنفسه عليها.

فهتف الشيخ صالح في همس وقور:

- الله أكبر.. الله أكبر.. الحمد لله الذي وهبنا هذا الطبيب الفاضل، الذي اختصر لنا الطريق، وحقّق ما نحلم به.. الحمد لله.. ألف حمدٍ لله على ما تفضل به وأنعم.

قال الوزير في سعادة:

- كلّ هذا التوفيق ببركة إخلاصك وصدقك ياشيخ صالح.

بكى الشيخ صالح من شدة الفرح، حتى علا نشيجه، ودمعت عيون الوزير وأبي صالح الذي قال:

- أرجو أن يكون ولدي مباركاً.

قال الوزير:

- هذا ما استيقنتُه من خلال ما مرَّ بنا من أحداث يا أبا صالح.

قال صالح بصوت باكٍ متهدج:

- أنا عبد فقير قليل يا أبي ويا عمي، ولكنها بركتكم وبركة الصالحين من أمثالكم.. كالإمام العابد المتبتل، والحاج فاتح التاجر الغني الشاكر الذي يبذل للمشروع بسخاء من لايخشى الفقر.

قال أبو صالح:

- الحاج فاتح، حفظه الله وإياكم، يبذل للمشروع وغيره، وأريد أن أطلعكم على سرّ ما أظنّ أحداً يعرفه من أصحابه غيري.

سكت أبو صالح، فحثه الوزير على الكلام، فقال:

- أخشى أن يزعل إذا علم أني أفشيت هذا السرّ.

- هل دعاك إلى كتمانه؟

- لا.. ولكني لاحظت حرصه على أن يبقى سرّاً بيني وبينه.

قال الوزير:

- إذا كان الأمر كذلك، فلا بأس من الحديث عنه.

سكت الوزير لحظة كمن يفكر، ثم قال:

- نحـن نقرأ فـي الكتب عن ورع الصالحين، وعـن كرمهم، وبذلهم، وشجاعتهم، وعلمهم، وسمّو هِمَمِهم، ولو لم يتحـدّث الذين يعرفونهم عنهم، لما قرأنا تلك المآثر والأخبار الرائعة التي تدعو إلى التأسّي بهم.

قال أبو صالح في فرح:

- إذا كان الأمر كذلك، فاعرفوا، باختصار شديد، أن الحاج فاتحاً يعول سبع عشرة أسرة فقيرة مستورة، وأنا أساعده في ذلك بجهدي، وهـو يبـذل لها بسخاء.. وتلـك الأسر تظنّ أني أجمـع لها من الحاج فاتح ومن زملائه التجار، ولاتعرف أنّ كل ما يُقدّم إليها، إنما هو حُرٌّ مال الحاج فاتح.

فهتف الوزير في إعجاب:

- الله أكبـر.. ما أروعك ياحاج فاتـح... تجلس معنا فلا تتكلم إلا إذا دعـت الضرورة إلى ذلك، وتتبرع للمشروع على استحياء ولا نكاد نعـرف مـا تتبرع به إلا مـن خلال اللجنة التي تنظـر إليك في تقدير وإعجاب.. ما أروعك.

قال أبو صالح:

- كـم قلـت للشيخ صالـح أن ينظم قصيدة في مـدح الحاج فاتح، ومدحـك يـا معالي الوزير، فـكان يأبى، مع شدة حبّـه لكما، ومعرفة مآثركما.

قال الوزير:

حسناً فعل، وإلا ... أذهب حسناتي بكلام ننتشي به لحظات، فتأكل النشـوة العارضـة ما يقـدّم الواحد منا من حسنات، هـذا إذا كان ما نقدّمه حسنات.

قال أبو صالح:

قلـت له: يا ولـدي يا شيخ صالح، سيفرح معالـي الوزير، وسيفرح الحاج فاتح بشعرك فيهما، ولكنه كان يقول:

«لا ... لـن يفرحـا بشعري، بل قد يستاءان منـي ومن شعري، وقد يعدّاني منافقاً وممالقاً ومرائياً».

قال الوزير:

- القسـم الأول مـن كلامك يا شيخ صالـح صحيح.. ما كنا لنفرح بمدحك لنا، والقسم الثاني غير صحيح، فما يخطر على بالنا أن تكون منافقاً أو مرائياً.. حاشاك يا ولدي، فأنت أكبر من هذا وذاك.

سكت الوزير لحظة، ثم نادى الخادم، وقال له:

- هات الهدية للشيخ صالح.

سأل صالح عن الهدية ومناسبتها، فقال الوزير:

- أمـا المناسبـة، فظهـور شـيء جديـد تستفيد منه فـي حياتك الدراسيـة، فقد ظهر شـيء جديد ومهم جداً يا ولـدي، وهو القراءة بطريقة الأوبتكون.

- قرأت عنها في مجلة المكفوفين التي تأتيني من لندن، وقالوا في المجلة عن ذلك الجهاز العجيب: إنه ظهر عام ١٩٧١ وقالوا إنه يتكوّن من

كاميرات صغيرة، وشاشة صغيرة، وجهاز بحجم آلة التسجيل الصغيرة، فيه فتحة تسمح بدخول الأصبع السبّابة فيها، من أجل القراءة.

قال الوزير:

- بـارك الله فيـك يا ولـدي، ظننت أنـي سأفاجئك بهـذا الجهاز العجيـب الـذي وصل إلى العاصمة قبل شهـر واحد فقط.. هاتفتني الشركة المختصة بعد وصوله بأيام، فحجزت لك جهازاً... وقد قالوا لي:

إن هـذا الجهـاز يساعدك على قراءة المـواد المطبوعة، من كتب وصحف ومجلات وسواهـا، وذلك بتحويل الرموز المكتوبة إلى رموز محسوسـة تحـت السبّابـة، فأنت تستطيـع أن تحسّ بشكل الحرف المقروء على الشاشة الصغيرة، بحيث تسمح للمعلم بمراقبة ما تقرأ أنت أو أي متعلم.

سأل أبو صالح عن ثمن هذا الجهاز العجيب الذي سيجعل الأعمى كالبصير في القراءة والمطالعة، فقال الوزير:

- كل شـيء يهون في سبيل الصعوبـات التي تعترض ولدي الشيخ صالح، وتعينه على أن يكون كفئاً لزملائه في الجامعات.

هجـم أبـو صالح على يد الوزيـر، وأخذ يقبّلها ويدعـو لصاحبها، والوزير يحاول سحبها من بين كفّيه القويتين، فلا يستطيع.

الفصل التاسع

نجح مشروع مركز الأبرار نجاحاً باهراً، وصار المركز كخلية النحل، التلاميذ الصغار يتعلمون في النهار، والأميون الكبار يتعلمون في الليل، ولجنة تحفيظ القرآن تعمل في المسجد والغرف التي ألحقوها به، والورشة الصغيرة صارت كبيرة، وكثر العاملون فيها من المكفوفين ومن المبصرين، ومدرسة المكفوفين نجحت هي الأخرى، وكثر المنتسبون إليها من القرى والبلدات القريبة والبعيدة، بل انتقل إليها للتعلم فيها بعض الأكفاء من أبناء المدينة، وكثرت أوقاف المركز، وارتفع شأن الشيخ صالح الذي أنهى دراسته في كلية الشريعة، وانتسب إلى قسم الدراسات العليا في الجامعة، ولكن دراسته لم تصرفه عن قريته، ولا عن مركز الأبرار، فقد كان يتردد عليهما في الأسبوع مرتين... لقد قسم وقته قسمين، للجامعة وللمركز.

كان يشرف بنفسه على المركز، على الرغم من وجود الإمام الذي تفرّغ للمركز، وشغل نفسه به، فلا يكاد يُرى إلاَّ فيه.. لقد وزّع وقته بين المركز والمسجد، فإذا سها عن المركز يوماً، أنّب نفسه وعاقبها، واعترف للشيخ صالح بتقصيره، وطلب منه أن يستغفر الله له، إضافة إلى استغفاره هو، مخافة أن يكون تقصيره من باب الإهمال المتعمّد، وهذا خيانة لا يرضى بها.

كان الشيخ صالح يتابع ما يستجدّ في مجال تعليم المكفوفين، فإذا سمع أو قرأ عن ابتكار جديد، سارع إلى الوزير يستعين به في تأمينه له، بحكم علاقاته مع الجامعات والأوساط الثقافية العربية والغربية، وكان الشيخ صالح ينقل ما يتعلمه إلى تلاميذه المكفوفين في المركز، ولايستأثر بشيء لنفسه، ولا يضنّ عليهم بمعرفة أو علم.. ولهذا أحبّه سائر المكفوفين، وصار ملاذهم، يلجؤون إليه كلما حزبهم أمر، فيحلّ لهم مشكلاتهم، ويقضي لهم حاجاتهم، ويساعد الفقير والمحروم والمريض والمدين، وكانت اللجنة ورئيسها الوزير قد فوّضوه بصرف أي مبلغ يرى ضرورة صرفه في المجال الذي يراه.

وقـد سـاعـده هذا علـى تقديم العـون لمنتسبـي المركـز، فيسدّ ديـن هـذا، ويداوي ولـد ذاك، ويشتـري الهدايا، ويقدّمهـا إليهم في المناسبـات، والكلّ راضون عنه، وعن حسـن تصرّفه في إدارة المال والأعمـال، حتـى صار اسمه علـى كل لسان، وصـارت قرية الطيبة ومركـز الأبـرار حديث الصحافـة والناس، وكلّهـم يتحدثون عن ذلك الشاب الأعمى المثقف الذي بدأ من الصفر، ثم هيّأ الله له من يعينه على تحقيـق طموحاته وأهدافه السامية، فخدم قريته أعظم خدمة، بنـى فيها مركـز الأبرار بفروعه وتشعباته، ومهّـد دروبها المتربة، ثم سعى إلى تعبيدها ووصلها بالمدينة، وحفر بئراً ارتوازية ليشرب منها أهـل القرية، بدلاً من المياه الملوثة التي كانوا يجمعونها من الأمطار الشحيحة ثم جلب إليها الكهرباء، حتى صارت واحة داخل صحراء.

وتحدثـت نسـاء القرية عن هـذا الشاب الأعمـى الزاهد الذي لم يتزوج حتى الآن، مع أنه تجاوز العشرين، وهي سنّ الزواج في القرى، بسنوات، وهو ما لم يعتد عليه أهل القرية، قالت إحداهن لأمّه:

- لماذا لا تزوجين ابنك الشيخ صالح؟

فأجابتها:

- حتى يأتي النصيب.

قالت امرأة ثانية:

- النصيب لا يأتي.. النصيب يأمرك أن تذهبي إليه.

وقالت ثالثة:

- كلّ بنات القرية يتمنين الزواج منه.

وقالت رابعة:

- بنتي مثلاً كانت تقول لبنات عمها: لو خطبني الشيخ صالح لوافقت.

فقالت لها بنت عمها: ولكنه أعمى، فردّت عليها بنتي: صحيح ولكنه أفضل من مئة (مفتّح).

وكانت أمّ صالح تتمنّى لو يوافق صالح على الزواج، لزوجته من بنت أبي معن، تلك الفتاة الجميلة التي تقول للقمر البدر: غب حتى أجلس مكانك.

حدّثت أباه بما تسمع من نساء القرية، وأبدت تخوّفها من أن تذهب بنت أبي معن من أيديهم، فخطّابها كثر، وهي بنت رائعة، وأبوها من وجهاء القرية ومن أغنيائها، وسوف يجهّز بنته بأحسن جهازٍ وأغلاه، وقد يشتري لهما بيتاً جميلاً، لأنها بنت مدلّلة، ويحبّها كثيراً.

قال أبو صالح:

- ونحن من بسطاء القرية ومن فقرائها، وابننا أعمى.

مسحت دمعة هربت من عينها وقالت:

- يا حسرة عليك يا ولدي يا صالح... لو كانت لك عينان مبصرتان، ورأيت بهما فطومة بنت أبي معن، لقبّلتَ يديّ ورأسي، وطلبت مني أن أخطبها لك.. لكن.. يا حسرة... أنت لا ترغب في الزواج، لأنك لا ترى، ولا تعرف القبح من الجمال.

خنقتها العبرات، فبكت وأنشجت بحرقة، وزوجها يحاول تهدئتها ولكن بلا جدوى...

نهضت إلى الباب ونادت ابنها صالحاً، فخفّ إليها صالح مذعوراً:

- ماذا بك يا أمي؟ خيراً إن شاء الله.

قالت في بكاء:

- من أين يأتيني الخير، وأنت تحسه بأمّك، ولا تنفّذ لها طلبها.

قال صالح:

- أعوذ بالله يا أمي.. إذن أنا ولد عاقّ ولا أدري.

قال أبو صالح:

- لست عاقاً يا ولدي.. ليت كلَّ الأبناء يكونون مثلك..الله يرضى عليك يا ولدي.

وقالت أم صالح:

- اسمعني يا ولدي.. فطومة بنت أبي معن، أريدها كنّة لي... والله يا ابني مثل القمر، ولكنّ عيبك أنك لا ترى.

صاح أبو صالح:

- افهمي ما تقولين يا امرأة.. عيب.. حرام..

قالت:

- الذي يقول الحقيقة تقول له: عيب.. حرام.. أليس ابننا أعمى؟

فصاح بها أبو صالح من جديد:

- أم صالح!

قالت:

- ابني أعمى، ولكنه أفضل من كل (المفتحين).. أنا أعرف ابني، وأحبّه، وأريد له الخير، ولكنه لا يفهم.

ضمَّ صالح أمّه إليه وقال:

- هذا رأيك فيّ يا أمي، لأني ولدك، وكما يقول المثل:

صاح أبو صالح:

- دعنا من أمثالك أنت الآخر يا صالح، وقل لأمّك: هل ترغب في الزواج حتى تخطب لك الفتاة المناسبة؟

صاحت الأم:

- رغب أم لم يرغب.. أنا أرغب .. أريد أن أزوّجك لترتاح وتريحني يا ولدي.. أريد أن أرى أولادك قبل أن أموت، فالشمس صارت على الحيطان، وقاربت أن تغيب.

قال صالح في رفق:

- توكّلي على الله يا أمي، فأنت ما زلتِ في عزِّ صباكِ وشبابك.

صاحت:

- إذا أردت أن أذهب إليهم الآن لأخطبها لك، ذهبت.

صَفَقَ أبو صالح كفّاً بكفّ وهو يقول:

- لاحول ولا قوة إلا بالله.. جنّت المرأة.

وقال صالح:

- تذهبين الآن يا أمي في هذه الليلة الباردة؟ الصباح رباح يا أمي.

قالت في فرح:

- قبل أن أعجن عجيني أذهب إليهم.

- لاحول ولا قوة إلابالله.

قال صالح:

- سأفترض أنهم يرضون بي زوجاً لابنتهم، وأن البنت ترضى الزواج من هذا الضعيف الأعمى.. ولكني سأصلّي صلاة الاستخارة.. سأستخير ربي قبل الخطبة.

قالت أم صالح:

- لا تعذّب روحك يا ولدي.. قلت للشيخ محمد الإمام أنٍ يعمل لك استخارة، وأخذت له من أثرك، وسوف يعطينا النتيجة غداً.

سأل صالح:

- هل قال لك هو ذلك؟

- لا... أنا لم أره.. كان في المركز.. ما شاء الله... الإمام عشق المركز.. لا يراه أحد إلا فيه.

- إذن..

- إذن..أمّك لاتُغْلَبُ يا ولدي... ذهبت إلى زوجته، وأعطتها أثراً منك، وطلبت منها أن يعمل زوجها لك استخارة.

تنهّد صالح:

-الحمد لله.. والله لو كان الإمام أخذ منك الأثر، ووعدك بشيء، لأقمت عليه الدنيا.

- لماذا يا ولدي؟ لأنه يريد مصلحتك؟

- لا.. لأن الذي يفعل هذا.. أعوذ بالله.. أعوذ بالله.

قال أبو صالح:

- استخــر الله يا ولدي حسبمــا جاء في السنّة النبويّة، ثم استشر الإمام في خطبتها.

صاحت أم صالح:

- وما دَخْلُ الإمام بهذا؟ هل هو سيخطب ويتزوج أمُ صالح؟

قال أبو صالح:

- يا أم صالح.. يا أمّ صالح.. ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار.

قالت:

استخــرت أم لم تستخر.. استشــرتَ أم لم تستشر.. سأخطب لك فطومة، وأزوّجك منها، وأكسر عيون كلّ الذين خطبوها.

قال صالح مبتسماً:

- تكسرين عيونهم بهاتين العينين المطفأتين يا أمي؟

نعمْ... بعينيك العمياوين هاتين يا ولدي، وسوف ترى.

وأجهشت بالبكاء.

قال أبو صالح:

- قم إلى فراشك يا ولدي، فقد انتصف الليل أو كاد.

قالت أمّ صالح:

- لا تنس صلاة الاستخارة.. لاتقل لي: نسيت... مفهوم؟

- مفهوم يا أمي.

جـدّد صالح وضوءه، ثم صلّى صلاة الاستخـارة ودعا دعاءها، ثم استلقى على سريره، يستغفر ربه، ويدعو دعاء النوم.

عند أذان الفجر كانت أمّه تهزه وتوقظه:

- قـم يـا شيخ صالح... قل لي ماذا رأيـت في منامك.. هل أذهب لأجسَ نبضها ونبض أهلها؟

قال صالح، وهو يتحسس ساعته ليعرف الوقت:

- هل صليت الفجر يا أمي؟

- لا.. سأصلي معك... أم أنك ستذهب إلى المسجد؟

- طبعاً سأذهب إلى المسجد... يا الله... يا رحمن.. يا رحيم.

قالت في لهفة:

- قل لي.. ماذا رأيت في منامك! حنطة أم شعيرة؟

- لم أر شيئاً يا أمي.

ألم تصل صلاة الاستخارة؟

- بلـى... صلّيت، ودعـوت، وسوف ييسر الله لي ما يراه خيراً لي، في الزواج منها أو عدمه.

قالت:

- على أي حال.. اذهب إلى المسجد، واسأل الإمام عمّا رأى في منامه.

بعـد صلاة الفجـر، جلس الصديقـان الحميمان: صالـح والإمام، وتحدثـا في أحـوال المركز وما سيفعلانه في هذا اليوم، ولم يتطرقا إلى الاستخارة أو الزواج أو أيّ شيء آخر لا صلة له بمركز الأبرار.

افتـرق الرجـلان، كلّ إلـى بيتـه، وإذا أمّ صالـح بالبـاب ترتجف، وتستقبل ولدها صالحاً بقولها:

- قال حيّة قال.. والله صاحبك هو الحيّة.. وحنش أيضاً.. ولكنك، يا حسرة، لا تستطيع أن ترى وجهه الأسود كالحنش.

سحبهـا من يدها إلـى الغرفة وهو يسألها عمّا دعاها إلى الوقوف في الباب في هذا الصباح البارد، حتى صار جسمها يختلج ويرتجف من البرد، فقالت:

- صاحبـك الشيـخ محمد.. هـذا الحنش هو الـذي جعلني أقف هاهنا أنتظرك، لأرى ما تفعل استخارته بك.

- عن أي استخارة تتحدثين يا أمي؟

- ألـم يقـل لك ما رآه في منامه؟ ليتـه كان أعمى حتى لا يرى.. لا في يقظته ولا في منامه.

استغفـر صالح ربّه على هـذا الذي يسمع في هذا الصباح، وتذكر مـا قالته أمّه في الليلة الفائتة، فعاد الابتسام والاطمئنان إلى نفسه، وقال لأمه في حبّ:

- هل رأيت الإمام يا أمي؟

- لا.. لم أره، ولا أريد أن أرى هذا الحنش.

- حرام يا أمي.. ولا تنابزوا بالألقاب... هكذا يأمرنا الله تعالى في كتابه العزيز... ثم ... أرجوك أن تحدّثيني من البداية، إلى النهاية، حتى أفهم، فأنا الآن طَلَّطمِيس من الجمعة إلى الخميس.

- حاشاك يا ابني... الطَلْطَمِيسْ هو، أمّا أنت، فسيّد العارفين.

استغفر صالح وحوقل ثم عاد إلى رجائها أن تحدّثه عما جرى ليفهم..

استجمعت الأمّ شجاعتها وقالت:

- رأى الشيخ محمد في منامه أن حيّة جميلة الألوان، لم ير في حياته مثلها، تريد أن تلفّك بجسدها البارد، وأنت تحاول الابتعاد عنها، لأنك خائف منها، وأنا أمّك أقول لك: تحمّلها يا صالح.. لا تبتعد عنها يا ولدي.

هذا هو المنام الذي رآه صاحبك الإمام في الاستخارة، عمى الله عينيه حتى لايرى مثل هذا المنام المخيف.

سألها صالح:

- متى رأيته يا أمي حتى يحكي لك هذا المنام؟

- بعد أن ذهبت أنت إلى المسجد، صليت الفجر وحدي، ثم ذهبت إلى بيته، وكان هو في المسجد فقصت زوجته هذا المنام عليّ.

قال صالح:

- ولكنه لم يذكره لي.

قالت في انفعال:

- لأن وجهه أسود.. وقلبه أسود، فكيف يحكيه لك؟

استغفر صالح من جديد وحوقل، ثم قال:

- أين أبي؟

- ذهب إلى الحقل... كأن الحقل سيطير.. قلت له: اجلس حتى يعود صالح ونفطر معاً، ولكنه ركب رأسه، وأصرّ على الذهاب... هكذا هو، رأس يابس مثل هذا الحطب الذي نتدفأ على ناره.

ابتسم صالح وقال:

- إذن ننتظره حتى يعود لنفطر معاً.

هجمت عليه، وقبّلته بين عينيه، وقالت:

- كم أنت طيب يا ولدي.. آه لو أن هاتين العينين مفتّحتان... ولكن.. لا يهمّك، فقلبك مفتّح، وعقلك مفتّح والحمد لله.

- الحمد لله، وألف شكر لله، فقد غمرني بفضله يا أمي وبكرمه.

قالت في حزن:

- لكنه لا يكملها مع أحد..

- استغفر الله يا أمي.. هذا الكلام لا يجوز ... استغفري الله يا أمي، فأنت امرأة مؤمنة والحمد لله، وسوف نذهب هذا العام إلى الحج معاً... أنت، وأبي، وأنا إن شاء الله تعالى.

فرحت أم صالح، وكادت تزغرد، لولا أنها تذكّرت تعليمات صالح في هذا الشأن، ثم غاضت الفرحة من وجهها، وحلّت الكآبة محلّها كهالة صفراء، وأحس صالح بما اعتراها بفطنته ومعرفته بأمّه،

فسألها:

- ما رأيك يا أمي؟ ظننتك ستطيرين من الفرح لهذا الخير.

قالت في تردّد وحزن:

- يا ليت يا ابني يا ليت، فالعين بصيرة واليد قصيرة، والذهاب إلى الحج مُكَلِفٌ جداً يا ولد وليس مع أبيك إلا ما يصرفه علينا يوماً بيوم.

قال صالح:

- ادّخرت بعض المال الذي كنت أكسبه من هنا وهناك، وهو يكفينا للحج.

فتحت عينيها جيداً وقالت:

- احذر من الحرام يا ولدي.. مال المركز حرام، ولا يجوز أن تأخذ قرشاً منه، احذر أن تمدّ يدك إليه. ظهر السرور في وجه صالح، وهو يسمع تحذير أمّه من المال الحرام، وقال:

- بارك الله فيك يا أمي.. أنت تعلمين أنّ يدي لم تمتدّ إلى الحرام وأنا صغير جاهل، فكيف تمتد الآن وقد كبرت، وتعلمت ، وصرت أميز الحلال من الحرام.

قالت:

- القطة تعرف الحلال والحرام، وتميّز بينهما، فإذا ألقيت إليها قطعة لحم أو جبن أكلتها أمامك، وإذا سرقتها هربت بها، وأكلتها بعيداً، ومع معرفتها هذه، فإنها تسرق، وقد تحلّل لنفسها السرقة، وهي حرام، بأنها جائعة، وأن أولادها الصغار العميان جائعون، أو أنها سوف تتوب بعد هذه السرقة.

وهكـذا يفعل بعض الناس، يعرفون وينحرفون، ويسوغون لأنفسهم أكل المال الحرام، ويطعمون أولادهم وزوجاتهم من المال الحرام دون أن يرفّ لأحدهم جفن، ودون أن ترتجف يده أو تتجمد وهي تمتد إلى المال الحرام.

انسربـت دمعتان من عيني صالح، وربت على كتف أمّه، وحمد الله على فهمها هذا، وعلى تقواها وورعها، ثم قال:

- اطمئني يا أمي، فسوف تحجّين بمال حلال.

قالت في سعادة:

- الحمـد لله يا ولـدي .. فأنت تعرف الحـلال والحرام أكثر مني أنـت عالم، وأنا جاهلة، ولكني أتعلم مـن أبيك، ومن الإمام، ومن هنا وهنـاك.. ثـم.. أنا ما زلت أذكر حديثك مع ابـن الجيران الذي سرق بيضتيـن من أمه، وأعطاك واحدة منهما، فأبيت أن تأخذها ونصحته أن يعيـد البيضتيـن إلى القنّ، وأقنعته بذلـك، فأعادهما .. هل تتذكر هذه الحادثة ياصالح؟

- وهل أستطيع أن أنساها يا أمي؟ لقد تسوَّغَ سرقته تلك بأنها من قنهم، ومن دجاجهم.

فقلـت له: لماذا لا تأخذ البيضتين بمعرفة أمك؟ فقال: لا ترضى، وسوف تضربني، ولذلك سرقتهما .

قلت له: أرأيت؟ أنت تقول: سرقتهما .. ولا يهم أن تكون السرقة من أمّك أم من غريب.. كلها سرقة.

مسحت الأمّ دموعها وهي تقول:

- وأنـا لـم أرك تسـرق، ولم أسمـع أحداً يتهمـك بأمانتك، ولكن الشيطان لم يمت يا ولدي، الشيطان شاطر، ويعرف كيف يحتال على

الناس، ولذلك سألتك، حتى لا نحجّ بمال حرام، فيذهب تعبنا هباء منثوراً، لأن الله لا يتقبل الحجَّ بالمال الحرام.

- لا يتقبل الحج وغير الحج بمال حرام... لا يتقبل الصدقة، ولا الزكاة، ولا التبرع، ولا أي شيء إذا كان من حرام.. فاطمئني يا أمّي.

قالت:

- قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى.. ولكن ليطمئن قلبي.

قال صالح:

- بارك الله فيك يا أميّ.. تقولين: جاهلة وأنت تحفظين الكثير من كتاب الله تعالى، وتفهمين ما تحفظين وتقرئين، وتستشهدين ببعض ما تحفظين؟.. هنيئاً لنا بك يا أمي، فقد ربيتمانا أنت وأبي على الصدق، والدين والأمانة، والأخلاق الفاضلة، وأطعمتمانا حلالاً طيباً، فما نبتت لحومنا من حرام، ولله الحمد.

سكت صالح لحظة ثم قال:

- ولكن.. هل تسمعين نصيحتي يا أمي؟

قالت وهي تضحك:

- أعرفها..

ومدّت لسانها الطويل، وأمسكته بأصبعيها، وتابعت تقول:

- هذا.. أنا أعرف أن لساني طويل، ويحب الكلام وكثرة الكلام، وكم دعوت الله أن يلجمه كما نلجم الحيوانات، ولكن الله لم يستجب لي... ليس بيدي.

وعندما همّ صالح بالكلام، وضعت كفّها على فمه، وقالت:

- تريد أن تقول يا ولد... ادع الله بظهر الغيب.. أم أنك فقدت الحياء؟

قال صالح في سرور:

- افتقدت الحياء وخانني الذكاء يا أمي.

قالت في مرح:

- ليست هذه هي المرة الأولى التي يخونك التوفيق فيها.

- هذا صحيح يا أمي.. فأنا كثير الأخطاء.. غفر الله لي ولأبي ولسائر المسلمين.

قالت:

- أما خانك التوفيق في رغبتك الذهاب إلى الحج قبل زواجك؟ ألم يقولوا: «الزواج قبل الحجاز»؟.

قال صالح:

- أرجوك يا أمي، دعينا من الزواج، فأمامي عدة سنوات لإكمال دراستي.

قالت:

- لعلك خفت من منام ذلك الحنش؟ لا.. لا تخف يا ولدي.. فمن غير المعقول أن تكون فطومة هي تلك الحية.. مستحيل.. اسألني أنا عنها.. فأنا أعرفها منذ ولدتها أمها.. اطمئن يا ولدي، وما رآه الإمام في المنام أضغاث أحلام.

- إذن.. لماذا كلّفت الرجل بعمل استخارة؟

- لـو كنت أعرف أنه سيــرى المنام السخيف ما كلفته، ثم أنا كنت أظنه من أصحــاب الأنفاس الطاهرة، وأنه سيرى مناماً جميلاً نرتاح إليه، وإذا هو يرى حيّة.. حيّة في عمامته إن شاء اللّه.

ضحك صالح حتى استلقى على قفاه، ونهضت أمّه وهي تقول:

- سأحضر الفطور، قبل أن يأتي من يأخذك وأنت على الريق.

وخرجت من الغرفة وهي تقول:

- قال حية قال.. الحيَّة تأكل رأسه.

قــرع باب الدار، وخرج صالح مسرعــاً ليفتح الباب، فهو يعرف أن الإمام هو الذي يقرع الباب، فقد اعتاد على قرعه.

وقـف معه خــارج الدار، وسأله عــن الاستخــارة والمنام، فضحك وقال:

- ما جئت إلا من أجلهما.

- لماذا لم تحدثني عن المنام في المسجد؟

- لأني ما كنت أعرف عنه وعن الاستخارة شيئاً.

- وهل عرفت بعد أن ذهبت إلى بيتك؟

- نعم..حكت لي زوجتي عنهما.

- كيف تحكي لك عن منام أنت رأيته؟

فضحك الشيخ محمد، وقال:

- دعنا ندخل فالبرد شديد.

- ولكن الوالدة مستنفرة، وقد تسمعك كلاماً يؤذيك.

- لا بأس ... دعنا ندخل أولاً.

بعـد أن استقرّ المقام بالشيخ محمـد، حدث صديقه صالحاً عما جرى:

- زوجتي المصون، يا صاحبي، حاطّة عينيها على فطومة، تريد أن تخطبها لأخيها، ولذلك تورّطت مع والدتك بهذا المنام الكاذب.

- كيف؟

- بصريـح العبارة، زوجتي لم تقل لي شيئاً عن الاستخارة، ولا عن الأثر الذي جاءت به أمك من آثارك .. خذه.

مـدّ صالح يده، وأخذ قطعة قماش كانت أمه اقتطعتها من قميص له، وضحك الرجلان على السذاجة والخرافات لدى الريفيات الأميات المسكينات، ثم قال الشيخ محمد:

- قصّـت علـيّ زوجتي ما جرى، فقد وعدت والدتك بأن أعمل لك استخارة، ولكنها لم تقل لي، لأني عندما عدت إلى البيت كانت نائمة، وفجـر هذا اليوم جاءت أمّك تسـأل عمّا رأيت في منامي، فاخترعت لهـا قصـة الحيـة التي تريـد أن تلف علـى عنقك أو علـى بدنك، لا أدري.

ضحك الشيخ صالح، ثم قال:

- لا بـدّ أنها اخترعت هذا المنـام، حتى تبعدها عن بنت الأخ أبي معن، لتخطبها لأخيها.

– صحيـــح .. هـــذا ما جرى.. ولكن.. احذر أن تقــول للوالدة شيئاً من ذلك.

– أعــوذ بـــالله لو عرفت هـــذا، لكانـــت فضيحة وقطيعـــة أبدية.. سأتدبـــر الأمر معها، وبارك الله لحميك بتلك البنت التي لم أفكّر بها ولا بغيرها.، ولكنّ.. ماذا أصنع مع أمّي.

– أعانك الله، وأعان أباك، وأعانني على زوجتي طيبة القلب، التي تورطنـــي كلّ مـــرة بورطة.. إنهـــا تريد مفاخرة رفيقاتهـــا، فلا ترى ما تفاخر به سواي.

وانطلـــق لسان الإمام يقلد صـــوت زوجته التي تحبّ الفخر فيما لا فخر فيه، على حدّ قول زوجها:

– زوجـــي شيـــخ ولا كل المشايـــخ.. استخارتـــه لا تخيـــب... دعاؤه مستجـــاب.. عالم يستطيع أن يكســـر رؤوس كل العلماء في المدينة.. وهكذا.

قال الشيخ صالح وهو يمسح دموعه من شدة الضحك:

– هنيئـــاً لك بهـــذه الزوجة.. تقول العرب: كل فتـــاة بأبيها معجبة، ولكن نساء قرية الطيبة معجبات بأزواجهن وأولادهن.

الفصل العاشر

كان توفيق الله حليف العاملين في المركز، فقد كانوا يعملون بجد وإخلاص من أجل إسعاد الناس البسطاء الفقراء الذين توافدوا إلى مركز الأبرار، وكانوا مثاليين في الجدّ والاجتهاد والانضباط، فقد شعروا بإخلاص العاملين فيه، من الوزير الذي يرأسه، إلى الإمام الذي يتولى شؤونه الإدارية والتعليمية، إلى اللجنة الوقفية التي تبذل جهوداً مضنية لتأمين أكبر قدر من الأوقاف للمركز، لتضمن له المستقبل والصمود في وجه العواصف التي قد يتعرض لها في المستقبل القريب أو البعيد... إلى الشيخ صالح الذي يعدّ المحرك الأساسي للعاملين في المركز، والبركة التي تجلب التوفيق والإعانات والأوقاف، والثناء الحسن للمركز.

كان العاملون في مركز الأبرار يسعون لتخليص المنتسبين إليه من سائر ألوان الظلم، مهما كلّفهم هذا من جهد ومال وسهر ونَصَب.

كانوا يعملون بصدق لتنمية قدرات أولئك البائسين، ليتغلبوا على متاعب الحياة ومشكلاتها، وكان كل واحد من أعضاء اللجنة العليا للمركز قدوة لأبناء المركز، في الحبّ، والتعاطف والتعاون فيما بينهم، حتى صاروا كالجسد الواحد حقيقة، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر على تخليص ذلك العضو مما يشكو منه من الحالات المرضيّة، الماديّة والمعنوية.

وكانت توجيهات الشيخ صالح، وتوجيهات الإمام، ذات أثر فعال في نفوس أبناء المركز عامة، والمكفوفين خاصة.

كان الشيخ صالح يعرض الحقائق الجديدة عن الروح الإنسانية للمكفوفين، وعن طبيعة علاقتهم بالعالم، عرضاً واضحاً محبّباً يعينهم على مواجهة حياتهم الصعبة في هذه الحياة، كان يزرع فيهم الروح الإنسانية، ويرى أنها عندما تتحققٍ فيهم، فإنها سوف تضفي قيمة جديدة على تجاربهم الحياتية، وكثيراً ما يضرب لهم الأمثال من تاريخنا الناصع، من سيرة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم،

وسيـــرة أصحابه الكرام، رضوان الله عليهم، ومن سير الصالحين من التابعين وتابعيهم، إلى العصر الحديث.

كان ينتقــي مــن تلك السير ما يناسبهم، ويمنحهــم الثقة بأنفسهم، ليعتمـدوا عليها، بعد اعتمادهــم على الله الرحمن الرحيم، في سائر أحوالهــم، وكان يسعى جاهداً من أجل تأهيلهم ليعيشوا حياة طبيعية في مجتمعاتهم، دون عُقَدٍ، أو مركّبات نقص.. وكان يستخرج مهاراتهم ويصقلها، حتى تبدو للعيان على خير صورة.

كانــت دروسه للمكفوفين مثاليــة، حضرها الوزير مرات، وكان في كل مــرة يبـدي إعجابه بأسلوب الشيخ صالــح المثير للانتباه، ولحب الاستطــلاع الذي يجرّهم إلى إثارة أسئلة كثيرة، ومثيرة، وكان الشيخ صالح يجيبهم عليها بعقلانية مدهشة، وعندما سأله أحدهم، والوزير جالس في الصف يستمع إلى الشيخ صالح:

- من أين لك كل هذا العلم والاطلاع يا شيخ صالح؟

أجابه بثقة عالية بنفسه:

من المثابرة على المطالعة يا صديقي..

قال آخر:

- أنــت، ياشيــخ صالح، عنــدك مــن الآلات والأجهــزة والناس ما يساعــدك علــى القراءة والكتابــة. أما نحن، فليســ عندنا سوى هذه المسطرة، وهذا المخرز.

قال صالح:

- كأنــك تريــد أن تسمع مطالبك لمعالي الوزيــر... على أيّ حال، معاليه يجيبك على هذا الكلام.

نهض الوزير عن كرسيّه، وتنحنح ليلفت انتباه المكفوفين، ثم قال:

- ما رأيك يا شيخ صالح في كلام الأخ؟

قال صالح:

- طلباته كلّها في محلّها، فالذي هيأتموه لي يا معالي الوزير، هم محرومون منه.

قال الوزير:

- اطمئنوا يا أولادي.. سوف نؤمّن لكم كل ما يساعدكم على متاعب الحياة.

فهتف المكفوفون للوزير، ودعوا له بطول العمر، مع الصحة والعافية، وهبَّ أحدهم قائماً ورفع كلتا يديه إلى السماء ودعا:

- اللهمّ حقّق لمعالي الوزير ما يصبو إليه في هذه الحياة.

وأمَّن الآخرون، وأمّن معهم صالح:

- آمين.. آمين.. آمين... يا رب العالمين.

ابتسم الوزير وقال:

- بارك الله فيكم يا أولادي.. ولكني أرجوكم أن تدعوا لي بحسن الختام، فقد صار مستقبلي خلف ظهري، وقد أعطاني الله الكريم أكثر مما أستحق والحمد لله على كل حال.

قال صالح في تأثر:

- بارك الله فيكم يا معالي الوزير، وأطال عمركم، وبارك لكم في أهلكم، وأوقاتكم، وأموالكم، يا أبا الفقراء والضعفاء والمساكين.

قال الوزير:

- البركة فيك يا شيخ صالح يا ولدي.. وإذا داهمني الموت، فسوف يكون هؤلاء الشباب أمانة في عنقك. أرجو أن تؤمّن لهم كلّ ما يحتاجون إليـه، وإذا كانت ميزانية المركـز لا تسمح، أو لا تفي بالمطلوب، فأنا جاهز.. خبرني يا ولدي لأؤمّن لك ما تطلب ويطلبون.

علـت هتافـات الأكفاء من جديد، فلم يملـك الوزير دموعه ثم ودّع صالحـاً وتلاميذه، وغادر الصفّ، وهو في غاية التأثر الذي لم يخف علـى صالح وتلاميذه المكفوفين الذين شعـروا بحال الوزير، فهتفوا لـه، وعـلا هتافهم حتى وصل إلـى مسامعٍ من فيٍ الخـارج، فأعلموا الإمام، وجاء الإمام على عجل، ليرى منظراً عجباً.. تقدّم من صالح، وسألـه عمّا يجري في الصف، فلم يستطع صالح الردّ عليه، لأنه كان فـي غايـة الانفعـال، فسحبه من يـده، وخرج به مـن الصف، وترك التلاميذ في حالهم.

فـي غرفـة الإدارة، قصّ صالح على الإمام مـا كان من أمر الوزير والتلاميذ، ثم قال:

- كيف ترى صحة الوزير؟

- على ما يرام.. لكن .. لِمَ هذا السؤال؟

قال:

- كان كلامه كلام مودّع.. هكذا شعرت.

استنكر الإمام هذا الكلام من صالح، وأنبه عليه، وقال:

- صحّـة معالـي الوزير خير من صحّتي وصحّتـك.. إنه شابّ وإن كان في الستين من عمره.

- أرجو ذلك.

ورفع يديه إلى السماء وابتهل:

- اللهم إنك تعلم أنّ هذا الرجل الطيّب قطعة نادرة في هذا الزمان، وأنـت تعلم يا ربي مدى حاجة المركـز والقرية والضعفاء والمساكين إليه من بعدك.

اللهمّ فأطلْ عمره، وبارك له في أهله وماله ووقته، ولا تحرمنا من وجـوده ومـن حياته معنا يا ربّ العالمين، يا ناصـر المستضعفين، يا الله.

كان الشيخ محمد يؤمّن على ابتهالات الشيخ صالح، وعندما انتهى الشيخ صالح من دعائه، ومسح وجهه بكفيه، قال له:

- والله، ياشيخ صالح، هذا الوزير لا مثيل له، وقد سمعت أنه ينوي بيع القصر، بعد أن وقف المزرعة للمركز.

سأل صالح:

- ممن سمعتَ هذا؟ ولماذا يبيع القصر؟

- مـن أجل المركـز، وقد أرسلـت زوجته رسالة إليّ مـع السائق، أخبرتني فيها بما ينوي الوزير فعله، وترجوني أن أتدخل أنا وأنت من أجل منعه من بيع القصر.

نهض صالح وهو يقول:

- الله أكبر.. الله أكبر.. وماذا تنوي أن تعمل يا شيخ محمد؟

- أنا أريد رأيك يا شيخ صالح.

قال صالح:

- لقد قدّم الوزير الكثير، وأرجو أن يسمع نصيحتنا بعدم بيع القصر الذي يسكنه هو وأهله.

قال الإمام:

- سمعت أنه لم يعد يملك شيئاً ذا بال، سوى راتبه التقاعدي، والقصر.

- ومع ذلك أمرني بتأمين ما يطلبه الأكفّاء في المركز، وقال: إذا لم تسمح ميزانية المركز، أو لم تف بالمطلوب، فأعلمني لأؤمن لك المطلوب.

اتفق الشيخان على ثني الوزير عما يفكّر به، وقرّرا أن يفاتحا الحاج فاتحاً بذلك، لعله يساعدهما.

وكان الحل عند الحاج فاتح بأن يتركا له هذا الأمر، وسوف يحسن التصرف فيه، ولن يسمح للوزير ببيع القصر، فليطمئنوا زوجته.

وقال الحاج فاتح:

- ثروتي المتواضعة كلّها تحت تصرّف هذا الرجل النبيل.

- بارك الله فيك يا عمي الحاج، وبارك لك في ثروتك.

نقّل الحاج فاتح نظره بين الشيخ محمد والشيخ صالح، كأنما يدور في رأسه أمر مهم يريد أن يفضي به، ولكنه يتردد في البوح به، حتى استحثّه الشيخ محمد بقوله:

- في فمك كلام ياحاج فاتح تريد أن تقوله، ما هو؟ نحن أصدقاؤك.

قال الحاج فاتح في تلجلج:

- هذا صحيح..

- إذن .. هات ما عندك ياعمي.

قال الحاج فاتح:

- والله لا يحملني على عرضي الذي سأعرضه عليك يا شيخ صالح، إلا حبّي لك، وإعجابي بأخلاقك ودينك وطيب أصلك.

قال صالح في حياء:

- أستغفر الله يا عمي.. حبّك لي لا يقل عن حبي لك، وإعجابي بك يا أبا المروءات يا عمي، بلا حدود.

قال الحاج فاتح:

- بنتي (غالية) غالية جداً عليّ، وليس فيها عيب، فهي متعلمة، وديّنة، وعلى خلق كريم والله، وجمالها فوق الوسط.

قال الإمام:

- تكلمْ يا حاج.. لماذا سكتّ؟

قال الحاج فاتح:

- يقولون: المعروض مذلول، ولكني سأعرض بنتي على ولدي الشيخ صالح ليتزوجها إن أحب.

ظهر العرق على جبهة صالح كحبات اللؤلؤ، واحمَرَّ وجهه والتهبت أذناه من شدّة الحياء، فقال الإمام:

- مـا لك يا شيخ صـالح؟ الحاج فاتح في مقام الوالد والأخ الكبير، وما قاله يوزن بماء الذهب.

فقال صالح:

- خسئ الذهب وماء الذهب أمام كلام عميّ الحبيب الغالي الحاج فاتح، يحفظه الله وأهله الكرام ويرعاهم.

قال الإمام:

- توكلنا على الله.

قال صالح:

- علـى مهلـك يا شيخ محمد، فلا بدّ مـن بعض الاستفسارات إذا سمح عمّي الرائع الحاج فاتح.

قال الحاج فاتح:

- كل الـذي تريـد قولـه معروف عنـدي، فأنا أعـرف حساسيتك المفرطة يا ولدي.

- بارك الله فيك يا عمّي، وأرجو أن يتسع صدرك لأسئلتي.

تفضّلْ ياولدي.

اعتـدل الشيخ صالح في جلسته، ومسح العـرق عن رأسه وجبينه ووجنتيه، ثم قال:

- أليست الكفاءة شرطاً من شروط صحّة الزواج؟

- وأنت كفؤ لأفضل بنت في هذا البلد.

قال صالح:

- حبّك لي ياعمي يجعلك تقول هذا.

- بـل هذا هو الواقع، فأنت شاب متعلم، وسوف تحمل الماجستير والدكتوراه إن شاء الله وسوف تكون أحسن أستاذ جامعي، بإذن الله، ولا تنقصك الصحة، ولا الوسامة والجمال يا ولدي اللهم إلا إذا كنت ترى أن ابنتي غالية دونك.

سارع صالح إلى القول:

- أستغفـر الله يـا عمي.. أنـا لا أرى في نفسي الكفـاءة لها، فأنا أعمى، وابن فلاح مستور الحال.

قاطعه الحاج فاتح:

- كـفَّ عن هـذا الكلام ياولدي، ولا أرى من المناسب لك أن تبقى في مثل هذه الحساسية.

فتدخل الإمام وقال:

- هل تسمحون لي بالتدخل؟

قال الحاج فاتح:

- بـل كـن حكماً عادلاً بيننا يا شيخ محمـد، فوالله الذي لا إله إلا هو، لقد خطبها أربعة من أبناء كبار التجار، ورددت خطوبتهم، لأني لا أرى من يكافئها في العلم والفهم والدين والأخلاق إلا الشيخ صالح.

- سأل الإمام:

- هل استشرت البنت ياحاج؟

- نعـــمْ.. شاورتها، وشاورت أمّها، وسألتا بعض الأسئلة عن الشيخ صالـــح، وأجبتهما بصراحة.. أنا هكذا مع أولادي عامة، ومع (غالية) خاصـــة.. جلســـت معها على انفراد أكثر من مـــرّة، وناقشنا الأمر من جوانبه كلها، وكانت موافقتها تامة.

- وموافقة أمها؟

- تامـــة أيضاً.. فنحن لا نفكّر بالمـــال، فعندنا منه الكثير والحمد لله، ولا نفكر بالجاه والسلطان.. نحن نفكر بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبتعاليمه السامية، ونحاول تطبيقها في حياتنا العملية.

قال الإمام:

- والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول:

«إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه»، وأنا أشهد أنك يا شيخ صالح..

صاح صالح:

- لا تكمل أرجوك ياشيخ محمد..

قال الشيخ محمد:

- بـــل سأقـــول مـــا أعرفه عنـــك، فالمستشار مؤتمن، مـــع أن عمّنا الحاج فاتح لم يستشرني.. فأنا أشهد الله على أن ما على لساني هو فـــي قلبي، وأشهد الله تعالى أيضاً، أنك يا شيخ صالح ذو خلق ودين، ولو كان لديّ أخت تليق بك، لخطبتك لها.

قال الحاج فاتح:

- يقولـــون عندنا: اخطب لبنتـــك، ولا تخطب لابنك، ولذلك جئتك خاطباً يا ولدي.

قال الشيخ صالح:

- والله هذا شرف كبير لي ما كنت أحلم به.

رفع الشيخ محمد يديه وقال:

- ياربّ تمّم بالخير يا كريم.

قال صالح:

- لا بدّ أن أستشير والدي ووالدتي يا عمّي الفاضل؟

قال الحاج فاتح:

- طبعاً لا بدّ من مشاورتهما، وأخذ موافقتهما.

وتابع صالح:

- ولابد أن يذهبا إلى بيتكم العامر يا عمي، ليخطبا كريمتكم المصون.

قال الحاج فاتح:

- نحن ننتظر منكم مكالمة هاتفية، لتحديد موعد الزيارة، في حال موافقة الوالدين الصالحين، ليريا البنت، ويقرّرا ما يريانه مناسباً.

وفي المساء، جلس صالح بين أبويه وقال:

- عندي مفاجأة.

وقصّ عليهما ما جرى، فأطلقت أمّ صالح زغرودة مجلجلة، والشيخ صالح يرجوها أن تكفّ، ولكنها قالت:

- سأفرح.. سأزغرد.. كفاكم ما فعلتم بي... لقد أعميتم قلبي... أجدادك وجداتك يا صالح كانوا أتقى وأعلم منك ومن أبيك، ومع

ذلك، كانوا يعبرون عن أفراحهم بالزغاريد والدّبْك والرقص بالسيف والتُّرْس، كما يعبرون عن أحزانهم بالبكاء.. فاتركوني أفرح ولو مرة واحدة في عمري الذي انتهى.

وأطلقت زغرودة أخرى، وتركها صالح، استجابة لأبيه الذي أشار إليه أن يتركها تعبّر عن فرحتها بطريقتها، ثم قالت:

- مبارك ياولدي... هذه أحسن من تلك الحيّة التي كانت ستلفّ على رقابنا جميعاً، مع أن الشيخ محمد قال: كانت تلفّ على رقبتك أنت وحدك.

ابتسم صالح، وكتم أمر الشيخ محمد وأمر زوجته أمّ محمد التي اخترعت قصة الاستخارة والمنام، ثم قال: ما رأيكما؟

قال الوالدان بصوت واحد:

- موافقون... موافقون..

وزادت أمّ صالح:

- حدّد لنا موعداً لنزورهم غداً، وأقول لهم: نحن مستعجلون، ونريد أن نزوّج ابننا خلال أسبوع.

قال أبو صالح بهدوء:

- يا أمّ صالح .. نزورهم أولا، ثم نراعي ظروفهم في توقيت العقد والزفاف.

- لا .. السرعة أولاً. على أيّ حال، اتركوها عليّ، سوف أتفاهم مع عروسنا ثم مع أمّها.. وأنا أمُّها وأبوها، وسوف ترون.

قال صالح:

- والحج يا أمي؟

قالت:

- الجواز قبل الحجاز.. أم أنك لم تسمع هذا الكلام قبل الآن؟

- بل سمعتُه منك يا أمي..

قالت مقطّبة مبتسمة:

- إذن.. اسمع كلام أمّك يا ولد.

- سمعاً وطاعة يا أمي الغالية.

- ولكنك لم تقل لنا ما اسم البنت، فعند الحاج فاتح بنتان في سنّ الزواج.

- اسمها غالية يا أمي الغالية.

فضربت على ظهره، ثم شدّت أذنه، وهي تقول:

- قلت في نفسي، صالح دائماً يقول: يا أمي الحبيبة، هكذا اعتادت أذني على سماع (حبيبة) فلماذا يقول لي الآن: يا (غالية) يا أمي الغالية.. من أجل (غالية) يا ولد؟

ابتسم أبو صالح ابتسامة ملأت محيّاه ثم قال:

- قلعت أذن الولد يا أمّ صالح... اتركيه.

لن أتركه، حتى لاينسى أني أنا الغالية، وليست (غالية) وحدها.

- ستكونين أنت غالية، وهي غالية أيضاً.

قالت في سعادة ظاهرة:

- واللّه عندما رأيت (غالية) في مزرعة الوزير، نزلت بقلبي مثل قرص الشهد، ولكن تلك الحيّة كانت آخذة عقلي وقلبي، لكنْ.. كثر اللّه خير الشيخ محمد الذي كشف لنا تلك الحية الرقطاء.. لقد فتح عيني على عيوب فيها ما كنت أعرفها.

قال صالح ضاحكاً:

- ومع ذلك، زعلتِ منه، واغتبته.

قالت:

- أرجوك يا شيخ صالح أن تطلب منه أن يسامحني، ولكنْ.. احذرْ أن تقول له ما قلته فيه .. مفهوم يا ولد؟

- مفهوم يا أمي.

وقال أبو صالح:

- على أن تستغفري لذنبك، ولذنبه أيضاً، وعلى أن تعاهدي اللّه ألا تذكريها أمام الناس إلا بالخير.

قالت:

- أنا لا أقول عنها حيّة إلا أمامكم.

- ولا أمامنا.

- ولا أمامكم.. ولتفرح تلك الحيّة، فقد نجت بجلدها.

- استغفري الله يا امرأة.

- استغفر الله يا رجل.. أما أنت يا شيخ صالح، فلا تنس الاستخارة، وإياك أن تقول لي: رأيت في منامي حيّة.. بل غزالة.. مفهوم؟

- مفهوم يا أمي.

وفي فجر اليوم التالي أيقظته مبكراً قبل طلوع الفجر، وسألته عن الأحلام الوردية التي رآها في المنام، فقصّ عليها مناماً جميلاً كان رآه في الأيام الأولى لتعرفه إلى الحاج فاتح، وقد شرح الله صدره لهذا الرجل من تلك الأيام، وقد رأى ذلك المنام هذه الليلة بالتمام والكمال. دمعت عينا أم صالح، وسجدت شكراً لله، ثم قالت:

- قم إلى وضوئك يا ولدي، فقد شارف طلوع الفجر.

بعد صلاة الفجر، سأله الإمام:

- وافقا؟

فهز صالح رأسه ثم قال:

- بقيت موافقة عمي الوزير.

قال الإمام:

- هيّا بنا إلى المنزل، لتهاتفه من عندي، وتتكلم بحريّة وصراحة، دون تدخل والدتك الطيّبة.

ابتسم صالح وقال:

- إنها لم تنس منامك عن الحيّة.

فضرب الإمام كفاً بكف وهو يحوقل.. فطمأنه صالح بأنها سوف تتناسى ذلك المنام، وطلبت مني أن أرجوك لتسامحها على تعليقاتها

على منامك.

صاح الإمام:

- وأنت أيضاً تقول منامك؟

- ألـم نتفق أن نبعـد زوجتك عن الموضوع، حتى لا تفسد العلاقة بينهما، فتفسد بيننا.

قال الشيخ محمد في حب وانفعال:

- مستحيـل يـا شيخ صالـح.. مستحيـل أن تفسـد العلاقة بيني وبينـك.. فأنـا أدعو الله في سرّي وعلنـي أن يجمعنا في الجنة، كما جمعنا هنا في الطيبة.

وسكت هنيهة ثم حثّ الشيخ صالحاً على النهوض معه إلى البيت، لاستشارة الوزير قبل أن يعود إلى نومه.

فرح الوزير فرحاً شديداً بهذا الخبر، وقال:

- الحمد لله ياولدي.. أبواب السماء مفتّحة لدعوات من يدعو لك، فمهمـا فتشت وشرّقـت وغرّبت، لا تجد مثل الحاج فاتح، ومثل تربية بناته. مبارك يا ولدي، وسوف أصحبكم لأشارك في الخطوبة.

وفـي منـزل الحاج فاتح اجتمع شمل الأحبّـة، وتم الاتفاق على كلّ شـيء بين الوزير والحاج فاتح والإمام، فيما كان صالح وأبوه ينصتان ويكتفيان بهزّ رؤوسهما بالموافقة على كلّ الترتيبات.

سأل الوزير عن ميعاد إعلان الخطوبة، وكتابة العقد، فجاءه صوت أمّ صالح من وراء الباب:

- اليـوم يا حضـرة الوزير.. خير البرّ عاجلـه، أليس كذلك ياحاج

فاتح؟

قال أبو صالح:

- هـذه أمّ صالح.. دائماً مستعجلة.. لو استطاعت أن تزفهما الآن لما تأخرت.

قال الشيخ محمد:

- وأنا معها.. خير البرّ عاجله.

وقال الوزير:

- وأنا معك ومعها يا شيخ محمد.

قال أبو صالح:

- كنا نستعد للحجّ هذا العام، أنا وصالح وأمّه.

فقال الإمام:

- وزوجته .. هل لديك مانع ياحاج فاتح؟

- قال الحاج فاتح:

- هـذه بشارة خيـر، وأرجو منك يا أبا صالح أن تضمّوني وزوجتي إلى قافلة الخير هذه، لنحجّ معاً.

فقال الشيخ محمد:

- وأنـا موافـق علـى أن أكـون مـع زوجتـي ضمـن هـذه القافلة المبرورة.

قال الوزير في حزن:

- ليتني كنت أستطيع أن أصحبكم.

سـأل الحـاج فاتح عن المانـع، فسكت الوزير، عندهـا قال الحاج فاتح:

- أنا العبد الفقير إلى الله تعالى أدعوكم إلى ما يلي:

أولاً: أدعوكـم مساء هذا اليوم لعقد قران ولدي الشيخ صالح على بنتي غالية، موافقون؟

- موافقون.

- ثانيـاً: قرّرنـا أن يكـون حفـل الزفـاف ليلـة الجمعـة الآتيـة. موافقون؟

- موافقون.

قال الإمام:

- رابعاً: قرّرنا أن يكون كل ما تقدّم على حساب أخيكم الحاج فاتح أرجو ألا تخيبوا ظنّه فيكم.

موافقون؟

فهتف الحاج فاتح فرحاً سعيداً:

- بـارك الله فيـك يا شيـخ محمد.. كنت سأقولها لـو لم تسبقني إليها.

الفصل الحادي عشر

كانت رحلة الحج ممتعة، كان كل رجل منهم يصحب زوجته، يتعبدان معاً، ويعلّمها كيف تطوف، وكيف تسعى، وكيف تحج، ثم عادوا وكأنهم وُلـدوا من جديد، عادوا وهم أشد حبّـاً وتعاطفاً وتماسكاً، وتصميماً علـى إنجاح مشروع العمر، كما يسمّيـه الشيخ صالح، الذي تضاعف بذلـه في سبيل إنجازه وكانت زوجتـه الحاجة (غالية) نعم المعين له في إدارة المركز، بما أوتيت من رجاحة عقل، وحُسْن تدبير، كما كانت له خير معين على الدراسة والتحصيل، وكان شعارها:

لا لليأس.. لا للفشل.. لا للتشاؤم.

نعم للأمل.. نعمْ للنجاح.. نعمْ للتفاؤل.

كانت تمضي الليالي معه والساعات الطوال في مدارسة المشروع، كانت تقول له:

- لـو رزقنـا الله ولداً جميلاً ذكياً مثلك، لمـا كان أغلى عندي من مركز الأبرار، يا أيها الشاب الصالح.

لقد بث في نفسه روح التحدّي للمصاعب والمتاعب، وروح الفرح والتفـاؤل، فكان لا يبـدو للناس إلا مبتسماً، فرحـاً، متفائلاً، ذا روح مرحـة.. لقد تجاوز كلّ معانـي العزلة النفسية والمادية، وتخلّص من عقدة العمى، وعمل جاهداً حتى خلّص تلاميذه المكفوفين من عقدة النقصـ هذه، وكان يروي لهم بعض نـكات مشاهير المكفوفين يقول لزميله في المركز:

- حدثـت مشـادة اليـوم بيـن اثنين مـن العاملين فـي المركز، ثم ارتضياني حكماً بينهما، فلمّا حكمت لأحدهما، غضب الآخر، وسبّني، وقال لي:

- وما أدراك بمثل هذه الأمور وأنت أعمى.

فقلت له:

- إذا كان الأمر كذلك، فلماذا دعوتني أنت بالذات لأحكم بينكما؟

قال:

- لتحكم لي.

- ولو بالباطل؟

- ولو بالباطل.

فتذكرت ما رواه لنا الشيخ صالح عن أحد العميان العباقرة من أمثالنا، عندما قال:

«أنا أحمد الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر».

فلمّا سئل عن السبب أجاب:

حتى لا أرى أمثالك من مبصري العيون، عميان القلوب.. فهذا الشخص المفتح صاحب العيون يريدني حكماً لأحكم له، ولو بالباطل، أفليس من الخير لنا ألا نراه ولانرى أمثاله؟

ضحك الشيخ صالح في سرّ أولاً، ثم علا ضحكه، فأحسّ بوجوده تلميذاه المكفوفان، تقدّم منهما، وسلّم عليهما بحرارة، وضغط على أيديهما، وقال:

- ذاك الشاعر الفيلسوف المعري الذي قال:

«إني أحمد الله على العمى، حتى لا أرى من لا أحب».

أما نحن .. فنحمد الله تعالى في سائر أحوالنا، ونحبّ سائر الناس، المحسن ندعو الله أن يزيده إحساناً، والمسيء ندعو الله

أن يخلصه من إساءته.. نحب الناس، ونزهد بما في أيديهم، ونترفّع عن سفاسف الأمور، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضوان الله عنهم، وسائر الرجال الصالحين، ممن سبقونا بإحسان، ومن المعاصرين، ومنهم المكفوفون مثلنا، ومنهم المبصرون.

هكذا كان الشيخ صالح لايفوّت مناسبة إلا ويستثمرها للصالح العام، من أجل إقامة مجتمع سليم، تسوده المحبة، ويتعاون أبناؤه على البرّ والتقوى، وقد جعل من مركز الأبرار مجتمعاً صغيراً منتجاً، يعمل من فيه كخلية النحل في الحبّ، والتعاون، والحركة، والإتقان، فقد جعلهم متحابّين متعاونين، متقنين، والشعار المعلّق في أرجاء هذا المركز، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

كما علّقوا على جدرانه، وفي الأماكن البارزة شعارات أخرى، تحثّ على الجدّ والاجتهاد، وعلى الحب الخالص لله وفي الله، وعلى التعاون المثمر، وعلى العمل بروح الفريق الواحد، وتحضّ على التقوى وصالح النيات في سائر الأعمال، وعلى الصدق في القول والفعل، وما شابه ذلك من آيات الله العظيم، ومن أحاديث رسوله الأمين - صلى الله عليه وسلم- ومن الحكم والأمثال والأشعار التي تدعو إلى الجدّ والإخلاص في سائر أحوال أبناء المركز.

كان الوزير يزور المركز مرة أو مرتين في الأسبوع، ويقرأ في وجوه العاملين فيه، والمنتسبين إليه، وفي حيويتهم ونشاطهم، ما يسعد قلبه، ويجلو صدأ الذكريات المريرة عن المجتمعات الأخرى، في الأجهزة والدواوين العامة والخاصة، تلك التي تسودها الفوضى واللامبالاة والتقاعس والتواكل والكسل وغيرها من الأمراض النفسية والقلبية، ولايسعه إلا أن يدعو للشيخ صالح، صاحب فكرة هذا المشروع، والذي بذل وما زال يبذل الكثير من أجله.. يدعو الله

لـه باطراد النجـاح وأن يحالفه التوفيق لتطوير هـذا المركز تطويراً يجعلـه أمثولة فيحذو حذوه الرجال المخلصـون الآخرون، ففي هذه الأمـة خير كثيـر، ولن تعقم النســاء أن يلدن مثل صالـح، في نظافة عقلـه وقلبه ويـده.. وتكون هناك مراكز كمركز الأبـرار، تعمل للخير العـام، وتذوب مصالح العاملين فيها في المصالح العامة، وينأون عن الأنانيات والأهواء الشخصية، والمصالح الذاتية الكفيلة بإجهاض أي مشـروع مهما كان عظيمـاً أو صغيراً، مـادام القائمون عليه يقدمون مصالحهـم الذاتية على المصلحة العامـة، وكان يرى أن تُكتب سيرة هـذا الفتـى الكفيف الذي أسـس هذا المركز علـى التقوى، ليقتدي الآخـرون به، ويؤسسوا مراكز صالحة كما أسس، ومن مجموعة هذه المراكـز الصالحة، يتأسـس المجتمع الفاضـل، ويتخلص الناس من التخلف والجهل والظلم.

وقـد أفضى الوزير بهـذه الرغبة إلى بعض أصدقائـه من أساتذة الجامعـات، فتحمسـ أحدهم للكتابة عن هــذا المشروع البديع وعن صاحب فكرته، وقال:

- سـوف أكلّف أحد طلابـي النجباء، بأن يـزور المشروع، ويلتقي الشيـخ صالح، ثم نجلس معاً، يا معالـي الوزير، لنساعد الطالب في إنجــاز رسالته الجامعية عن المشروع منذ كان فكرة تطوف في نفس الفتى صالح، إلى أن تطورت الفكرة، ثم تجسّدت في مركز الأبرار.

قال الوزير:

- ولكن الجهد الأكبر أرجو أن يدور حول الشيخ صالح، هذا الشاب الـذي لم يمنعه فقدُ بصره، من أن يكون عنصـراً فعّالاً في مجتمعه القـروي الصغير، ثم في المعهد الشرعي الذي تعلّم فيه، ثم في كلية الشريعـة، وفـي هذا المركز.. لقـد كان الشيخ صالـح مؤثراً في كل مجتمـع عاشـ فيه وعايشه، وسوف يرى تلميـذك الذي سيكتب هذه الدراســة أن شخصية صالح مؤثـرة، آسرة، وسوف يستفيد هو منها، كما استفدت أنا.

- أنت يا معالي الوزير، استفدت من ذلك الفتى الأعمى؟

- إي والله ... استفـدت من تجرّده عن مصالحه الشخصية، وعن الأنانيـة وحبّ الـذات.. استفدت من أمانته وصدقـه.. استفدت من دأبه، فهو نشيط لا يكلّ ولا يملّ ولا يتعب، يواصل الليل بالنهارٍ لإنجاز ما يكلّف نفسه به.. استفدت من تصميمه على النجاح، بعيداً عن كل أسبـاب اليأس والإحباط، وما أكثرها في حياتنا.. ولو أردت أن أكتب لـك ولتلميذك عـن حياة هذا الشـاب الكفيف، لسطـرت لكما كتاباً كبيراً.

قال الدكتور:

- هل يستأهل أن تكتب عنه كتاباً؟

قال الوزير في جدّ:

- أنا لا أبالغ، وسوف تؤخذ أنت وتلميذك بما قدمه الشيخ صالح، وبمـا يقدّم للمركز، والقرية، علـى الرغم من أنه سوف يناقش رسالة الماجستير قريباً جداً إن شاء الله تعالى.

قال الدكتور وهو يهزّ رأسه:

- سـوف نرى يا معالـي الوزير، وسوف نستفيد منك ومن خبراتك ومن معلوماتك إن شاء الله.

- إن شاء الله تعالى يا دكتور.

- أن يكون للباحث إسهام في ميدان الأدب والفنون
- أن يكون العمل الأدبي في الشعر أو القصة أو الرواية أو المسرح أو الدراسة الأدبية، أو الفنون مثل فن الخط والزخرفة والعمارة وغيرها.
- أن يكون العمل جديدا لم يسبق نشره.
- أن يعالج مضمونه وفق الرؤية الوسطية.
- أن يسهم في التنمية الفنية والجمالية للفرد والمجتمع.
- أن يقدم العمل مطبوعا في ثلاثة نظائر، إضافة إلى قرص مدمج، وأن لا يتجاوز مائتي صفحة، من حجم A4، وبخط Simpliefed Arabic، ذي البنط 16.
- يحق للجنة العلمية أن تقترح على صاحب العمل إدخال التعديلات المناسبة.
- لا تسترد الأعمال غير المنشورة.
- يقدم لصاحب العمل المنشور مكافأة مالية تقديرية.

نهر متعدد.. متجدد

هذا الكتاب

فوجئ صالح بهذه الدعوة، ولكن قلبه كان يرقص من الفرح، فما كان يحلم أن يدعوه أحد أساتذته إلى بيته فكيف بالوزير نفسه؟ لكن... لماذا هذه الدعوة؟ ماذا وراءها؟ هل هي للعطف عليه، أم لإكرام العلم وطلاب العلم؟ أم أنه قص على زوجته ما جرى فطلبت هي أو ابنها أو كلاهما أن يدعوني إلى الغداء.

لكن... من أنا؟ ومن أكون حتى يفكر بي هؤلاء؟ لا بد أن في الأمر سراً: صحيح أنني طالب متفوق على زملائي وربما كنت أذكى منهم جميعاً، ولكن هذا ليس مسوغاً لمعالي الوزير ليدعوني إلى بيته.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

الشركة العصرية للطباعة ت: 24235583-24235543 • ف: 24203084